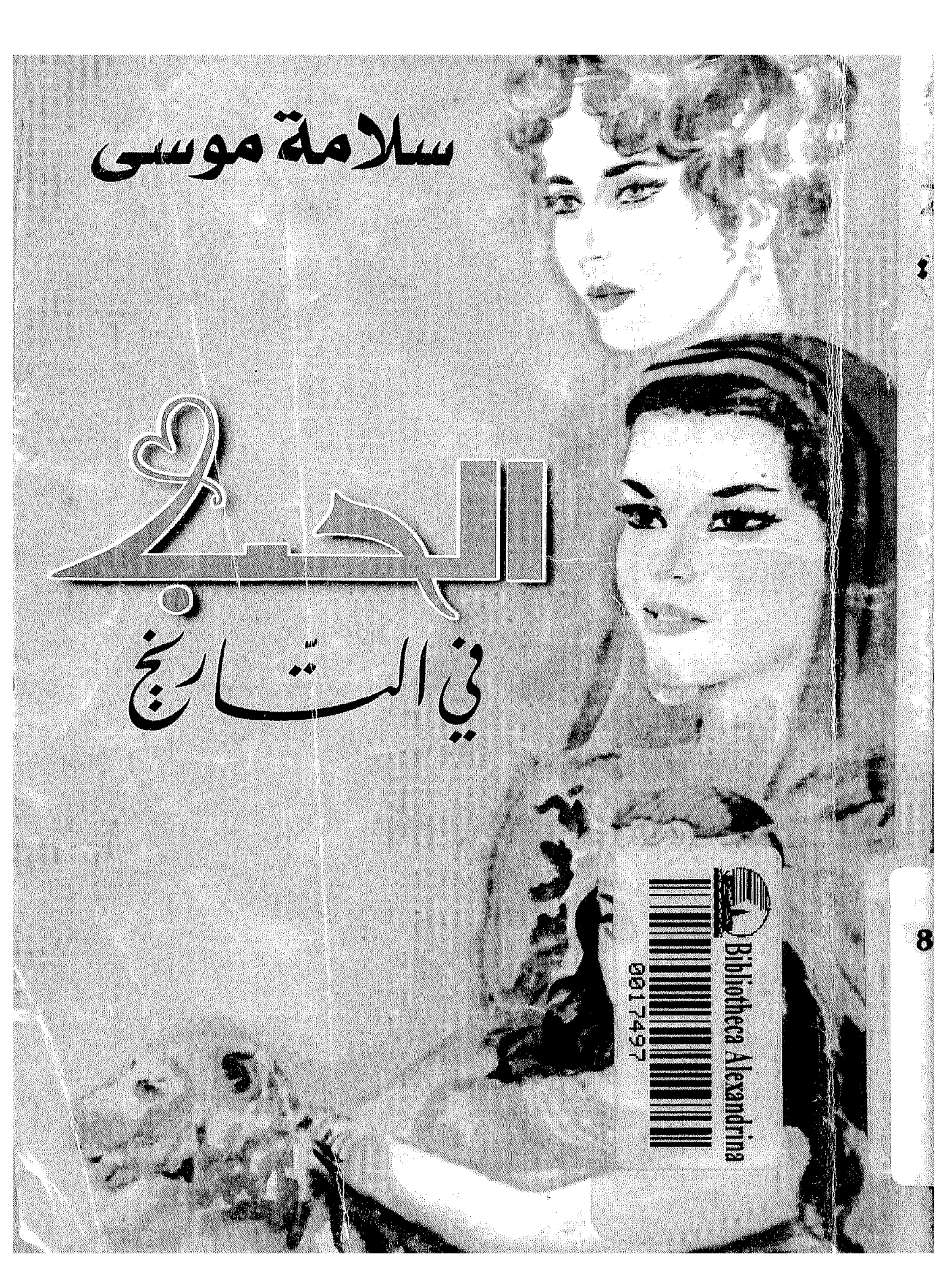

سلامة موسى
الحب
في التاريخ
Bibliotheca Alexandrina
0017497
8



الحب في التاريخ



سلامة موسى

الحب في التاريخ

سلامة موسى للنشر والتوزيع
سنوات من الكفاح الهادف

الطبعة الأولى ١٩٢٥
الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) ١٩٤٦

المقدمة

للإنسان غريزة جنسية إذا تنبهت أحتدت فأستحالت إلى عاطفة ، فشهوة ، فإندفاع فوري لايكاد الإنسان يدري ما هو فاعل فيه

ولكن للإنسان أيضاً عقلاً إذا تنبه لم يحتد ، ولكنه يتأمل في أناة وتبصر . فيستحيل إلى وجدان يدري الإنسان ماهو فاعل فيه

وكلنا سواء في الغريزة . بل نحن والحيوان سواء فيها . ولكننا نتفاضل في الحب الوجداني الذي ينشأ عن التعقل والتبصر ، فندري ما نحن بسبيله من التقرب للجنس الآخر ، ونقدر الصفات ونزن الفضائل

والحب الغريزي هو حب العاطفة ، حب الشهوة والنظرة الأولى ، وهو بعيد عن الحب الوجداني ، الذي يزن ويقدر ويعرف القيم البشرية العالية

حب العاطفة هو الحب الأعشى القصير

وحب الوجدان هو الحب الفهيم البصير

وهناك نوعان من السعادة كما أن هناك نوعين من الحب . فإن سعادة الغرائز هي سرور زائل ، كما نجد في لذة الأكل أو الشرب . وهو سرور عاطفي ، ما هو أن نشبع حتي ينطفيء . ولكن السعادة المقيمة هى

ثمرة الوجدان والتعقل . وكذلك الشأن في الحب العاطفي الذي ينشأ من أول نظرة . إذ هو شرور زائل . ولكن الحب الوجداني الذي تعتمد فيه على التعقل والتبصر ووزن القيم البشرية ، هو أكثر من السرور : هو سعادة مقيمة

وهناك خطأ شائع هو أن الحب بين محبين إنما يرجع إلى الغريزة الجنسية لا أكثر . وهذا إلتباس يحتاج إلى بعض التحليل . فإن الأشتهاء يرافق الحب . ولكنه ليس أصله . بل يحدث أحياناً أننا عندما نحب إمرأة حباً عظيماً ، فإننا نرفعها إلى مرتبة من الطهارة ، ونسمو بجمالها إلى معاني من القداسة ، بحيث تتقهقر الغريزة أمام هذه الأعتبارات

ولكن الحب ينتمي إلى أصل آخر هو ذلك التعلق الذي نما في طفولتنا وربطنا بالأم . وهذا هو الذي يجعل في الحب حناناً ورقة ورحمة . ونحن حين نحب إمرأة إنما في الواقع نحب صورة الأم في وجهها وقامتها وصوتها . لأننا قد نشأنا على أن نكبر من شأن الصفات التي تتحلي بها أمهاتنا

وإذن يجب أن نقول : أن الحب العظيم ليس هو حب النظرة الأولى ، حب العاطفة . وإنما هو حب التبصر ، حب الوجدان والتعقل . ويجب أن نقول أيضاً أن الحب ليس هو الشهوة . وما في الحب بين رجل وأمرأة من عظمة ومجد وجلال ، إنما يرجع في صميمه إلى الصفات السامية التي

نعزوها إلى أمهاتنا ، وإلى أخلاق أجتماعية قد علمنا إياها المجتمع ، وإلى عادات عائلية مارسناها في طفولتنا

وإذن يجب أن نقول أيضاً أن الناس ليسوا سواء في القدرة على الحب. كما أنهم ليسوا سواء في القدرة على السعادة . لأن كليهما ، الحب والسعادة ، يتوقفان على مقدار ما عندنا من وجدان أي تعقل - وعلى مقدار ما أحببنا أمهاتنا ، وعلى مقدار ما كان عند أمهاتنا من صفات سامية

وهناك فرق في الحب بين الرجل والمرأة . فإن حب الرجل يكاد يقتصر على المرأة ، أي على زوجته . وحبه للأطفال ضعيف مشتت مبعثر ، إذ هو مشغول بالكسب مختلط بالمجتمع أكثر من المرأة . لكن حب المرأة يختلط بأبنائها . ولذلك فأن الامومة جزء خطير من الحب النسوي

وأخيراً قد يسأل القاريء : هل يجب أن نهتم بالحب ، ونؤلف عنه المؤلفات نروى فيها تفاصيله وأساليبه بين محبين ؟

والواقع أن الحياة أكبر من الحب . وأن الانسان يستطيع أن يرصد حياته لعمل عظيم يستغرق كل عقله وكل قلبه وكل مجهوده . كأن يتوخي تحقيق مذهب ، أو اختراع آلة ، أو توجيه شعب إلى غاية ، أو نحو ذلك. وهذا النشاط جدير بأن تؤلف عنه الكتب وتروى عن تفاصيله القصص

ولكن الحب هو السعادة ، أو هو أقرب شيء إلى السعادة . وفيه

تتبلور أخلاقنا ، وتبدو في جوهرها الأصيل . وهو ، أي الحب ، يربينا ويستنبط منا أسمى ما في أخلاقنا . ولذلك حين نروي قصة عن الحب إنما نروى أيضاً أحسن ما في الطبيعة البشرية من خلال تحملنا جميعاً على الأعجاب وعلى الأحساس بالسعادة

لماذا يتشابه المحبـــان ؟

كثيراً ما يحدث أننا نلتقي بزوجين ، فنظنهما للتشابه العظيم بينهما أنهما شقيقان . مع أنهما قد يكونان غريبين ، لا تربطهما قبل الزواج أية قرابة عائلية تبرر هذا التشابة . ذلك أن أحدنا قد يشبه أبن عمه أو أبنة خالته ، وقد يتزوجها ، فيكون التعليل واضحاً للتشابه بينهما . ولكنا كثيراً ما نجد أن الزوج الذي نشأ في الأسكندرية ، قد تزوج فتاة من قنا أو القاهرة ، ومع ذلك نجد عندما نتأملهما أنهما يكادان يكونان شقيقين، فما هي علة ذلك ؟

علة ذلك أن الشاب عندما يبلغ سن المراهقة ثم الشباب ، إنما يتخيل صورة معينة من الجمال تلازمه مدى حياته ، مهما تأثر ببعض الظروف الأجتماعية أو الفنية . وهذه الصورة هي صورة أمه وقت الرضاع ، وفي أثناء السنوات الثلاث أو الأربع التالية . وذلك لأنه في هذه السنين لا يجد في عالمه شخصاً أكثر عطفاً عليه ، وإلتفاتاً إلى حاجاته ، وحباً له من أمه . فوجه أمه إذن هو أجمل الوجوه ، وصوتها هو أرخم الأصوات، وقامتها هي القامة المثلى للنساء الجميلات . وتبقى هذه الصورة كامنة

في ذهنه بل في نفسه إلى أن يبلغ المراهقة فالشباب . فإذا جاء ميعاد الزواج ، صارت جميع الوجوه قبيحة أو سمجة أو غير جميلة ، ماعدا تلك الوجوه التي أشبهت وجه أمه . فهو يستلطف هذا الوجه ، ثم يعشقه، ويختار تلك الفتاة التي تشبه أمه ، أو على الأقل تقاربها في الوجه واللون والقامة والصوت والبدانة أو النحافة

ولذلك نجد أن الرجل السمين يتزوج الفتاة السمينة ويستلطفها ، بخلاف الشاب النحيف الذي لا يستلطف غير الفتاة النحيفة . ومرجع ذلك أن أم السمين كانت سمينة مثله أيام طفولته ، وكان يحبها لأنها أمه ، وكان يعتقد أن السمن الذي هو صفة أمه من علامات الجمال . فلما كبر وسمن هو نفسه بحكم الوراثة من أمه ، أو بحكم المعيشة ونظام الغذاء معها ، لم يعد يجد الجمال إلا في المرأة السمينة . وقل مثل ذلك عن الرجل الأبيض ، لايرضى بأن يتزوج فتاة سمراء ، أو الرجل الطويل لايرضى بأن يتزوج فتاة قصيرة ، لأن أم الأول كانت بيضاء ، وقد غرست فيه حب البياض ، ولأن أم الثاني كانت طويلة ، وقد غرست فيه حب الطويلات

فالرجل يشبه زوجته لسبب واحد هو أنه قد أنغرست فيه قيم الجمال منذ طفولته ، وكأن الأنموذج الذي رسم عليه ، وأخذ عنه هذه القيم ، هو أمه . ولما كان هو يشبه أمه بحكم الوراثة إلى حد بعيد ، ثم لأنه عندما يتزوج يختار فتاة تشبه أمه ، فأننا نجد الأثنين بعد الزواج متشابهين

كأنهما شقيقان

وهنا قد يرد بعض القراء : ولكن هناك أزواجاً يختلف فيها الزوج عن زوجته ، فهو طويل وهي قصيرة ، وهو أسمر وهي بيضاء ، وهو سمين وهي نحيفة ، فما هو تعليل هذا الأختلاف ؟

فللأجابة على هذا السؤال نقول أن هذا الأختلاف بين الزوجين قليل الحدوث جداً ، وهو حين يوجد يكون مرجعه إلى أن الزوج لم يختر زوجته لجمالها ، ولكن لأغراض أخرى . كأن تكون ثرية ، أو من عائلة معينة لها مكانة إجتماعية أو نحو ذلك . أي أنه لم يكن مسوقاً في إختياره بميوله الجمالية التي نشأ عليها منذ الطفولة ، وأحياناً يكون قد تربى بعيداً عن أمه ، كأن كانت هناك له مرضع خاصة جمعت عواطفه نحوها . فهو عندما يشب ، يختار فتاة تشبه هذه المرضع . أو ربما تكون أمه قد ماتت قبل أن ترضعه ، أو قبل أن تتم معه سنتين أو ثلاث سنوات ، فهنا ترتبك مقاييسه وتختلط قيمه

وهناك رأي شائع ، وهو أننا نختار من الجنس الآخر من تناقضنا . كأنها بهذه المناقضة تكمل النقص الذي عندنا ، ولكن نظرة عابرة شاملة للأزواج توضح لنا خطأ هذا الرأي . ففي تسعين في المائة من الحالات نحن نختار تلك الفتاة التي تشابهنا . وكذلك الشأن في الفتاة عندما تختار الشاب . فإنه يجب أن يشبه أباها وأمها معاً . وذلك لأن هذا الأب هو البطل الذي نشأت على رؤيته في البيت . وهو السيد المطاع .

وقد قيل « كل فتاة بأبيها معجبة » . وليس هذا المثل عبثاً . ولكن لما كانت فتياتنا غير حاصلات على حق الأختيار الكامل ، فإن الشاب هو الذي يختار وفق الأنموذج الذي أرتسم في نفسه منذ أيام الطفولة ، بل منذ أيام الرضاع . وهو يختار فتاة تشبه أمه . وهو بالطبع يفعل ذلك على غير وجدان ، أي أنه لايدري أنه متأثر بجمال أمه . لأن صورة أمه كامنة في نفسه ، وليست ماثلة

وعلى القارئ ألا ينسى أن صورة الجمال التي ترتسم للأم في ذهن أبنها ، إنما هي صورتها وهي بين العشرين والأربعين تقريباً . أي صورتها وهي شابة جميلة . فإذا شاء القاريء أن يفحص عن نفسه وعن ميوله الجمالية ، فيجب أن يتذكر أمه كما كانت قبل عشرين أو ثلاثين سنة . وليست كما هي الآن عجوز درداء متغضنة ، كثيرة الرقاد والأوجاع ، تسعل وتعطس ، وقد ترهل بطنها وأسترخت عضلاتها

بقي شيء آخر هو أن ننصح للشاب بألا ينخدع بصورة أمه فيقع في فتنة هذا الوجه الذي ثبت فيه منذ الطفولة . لأن هذه الفتاة التي تشبه أمه في التقاسيم والملامح والقامة والصوت ، أو في بعض هذه الصفات ، هذه الفتاة قد تكون سيئة الأخلاق . فهو يفتن بخيال يضفيه عليها ، ولكنه يجهل أخلاقها . وإذن لابد في الزواج من أن نطمئن على صفات أخرى كالذكاء والأخلاق

رأي العـــرب في الحب

قال شهاب الدين النويري في « نهاية الأرب » :

أول ما يتجدد الأستحسان للشخص ، تحدث إرادة القرب منه ثم المودة، ثم يقوى فيصير محبة ، ثم يصير هوى ، ثم يصير عشقاً ، ثم يصير تتيماً ، ثم يزيد التتيم فيصير ولهاً

وأما سبب العشق ، فهو مصادفة النفس ما يلائم طبعها ، فتستحسنه وتميل إليه ، وأكثر أسباب المصادفة النظر . ولايكون ذلك باللمح ، بل بالتثبت في النظر ومعاودته بالنظر . فإذا غاب المحبوب عن العين ، طلبته النفس ، ورامت التقرب منه ، وتمنت الأستمتاع به . فيصير فكرها فيه ، وتصويرها إياها في الغيبة حاضراً ، وشغلها كلها به ، فيتجدد من ذلك أمراض لإنصراف الفكر إلى ذلك المعنى . وكلما قويت الشهوة البدنية ، قوي الفكر في ذلك

وذكر بعض الحكماء أنه لايقع العشق إلا لمجانس ، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل . وأستدل بقول النبي صلي الله عليه وسلم : «الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها

أختلف». قال : وقد كانت الأرواح موجودة قبل الأجسام . فمال الجنس إلى الجنس . فلما أفترقت الأجسام ، بقي في كل نفس حب ما كان مقارناً لها . فإذا شاهدت النفس من نفس نوع موافقة ما ، مالت إليها، ظانة أنها هي التي كانت قرينتها . فإذا كان التشاكل في المعاني كانت صداقة ومودة . وإن كان في معنى يتعلق بالصورة كان عشقاً . وإنما يوجد الملل والإعراض من بعض الناس ، لأن التجربة أبانت أرتفاع المجانسة والمناسبة

وقال بعض الحكماء :

ليس العشق من أدواء الحصفاء الحكماء . إنما هو من أمراض الخلعاء، الذين جعلوا دأبهم ولهجتهم متابعة النفس ، وإرخاء عنان الشهوة ، وإمراح النظر في المستحسنات من الصور . فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس ، ثم تألف ، ثم تتوق ، ثم تلهج

وقال ابن عقيل : العشق مرض يعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة المتلمحة للصور لدواع من النفس ، ويساعدها إدمان المخالطة ، فيتأكد الألف ، ويتمكن الأنس ، فيصير بالأدمان شغفاً . وما عشق قَطْ إلا فارغ ، فهو من علل البطالين ، وأمراض الفارغين من النظر في دلائل العبر وطلب الحقائق ، المستدل بها على عظم الخالق . ولهذا قلما تراه إلا في الرعن البطرين ، وأرباب الخلاعة النوكي . وما عشق حكيم قط . لأن قلوب الحكماء أشد تمنعاً عن أن توقفها صورة من صور الكون مع

شدة طلبها ، فهي أبداً تلحظ وتخطف ولا تقف . وقل أن يحصل عشق من لمحة . وقل أن يضيف حكيم إلى لمحة نظرة . فإنه مار في طلب المعاني ، ومن كان طالباً لمعرفة الله لا توقفه صورة عن الطلب ، لأنها تحجبه عن الصور

وقال الربعي : سمعت إعرابية تقول : مسكين العاشق . كل شيء علوه . هبوب الريح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، ورسوم الديار تحرقه ، والعذل يؤلمه ، والتذكر يسقمه ، والبعد والقرب يهيجه ، والليل يضاعف بلاءه ، والرقاد يهرب منه . ولقد تداويت بالقرب والبعد ، فلم ينجع دواء ولا عز عزاء

وقال داود الأنطاكي في كتابه « تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق » عن بعض البلغاء :

العشق فضيلة ، تنتج الحيلة ، وتشجع الجبان ، وتسخي كف البخيل، وتصفي ذهن الغبي ، وتطلق بالشعر لسان الأعجم ، وتبعث حزم العاجز الضعيف . وهو عزيز يذل له عز الملوك وتضرع له صولة الشجاع . وهو داعية للأدب ، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن ، ويستخرج به دقائق المكايد والحيل . وإليه تستريح الهمم ، وتسكن به فواتر الأخلاق والشيم. يمتع جليسه ، ويؤنس أليفه ، وله سرور يجول في النفوس ، وفرح يسكن في القلوب

ونقل أبن خلكان في ترجمة العلاف ما ملخصه أن العشق جرعة من

حياض الموت ، وبقعة من رياض النكل . لكنه لايكون إلا عن أريحية في الطبع ، ولطافة في الشمائل ، وجود لا يتفق معه منع ، وميل لاينفع فيه عذل

وقال بعض « العارفين »: شرط المحبة أن تكون ميلا ، بل نيل، وشرطاً بلا جزاء ، تزول عند زوال العوض ، ويتأكد ذلك في أحباء الله عز وجل

رأي الإفرنج في الحب

قال جيته : نحن نتكيف ونتشكل طبق ما نهوى

وقال فولر : المحبة كالضمير ، أحرى بها أن تُرْشَد وتقاد ، لا أن تجر وتغتصب . وأولئك الذين يتزوجون من لا يحبون ، يحبون غير من يتزوجون

وقالت مدام دوستايل : العشق الذي هو عارض في حياة الأنسان، يستغرق حياة المرأة بأجمعها

وقال فنست : لست من أولئك الذين لايؤمنون بإمكان الحب من أول نظرة ، ولكني أومن بوجوب النظرة مرة أخرى

وقالت مدام دوديفان : إن الرجل الذي تحبه أمرأة جميلة فاضلة ، يحمل من حبها طلسماً يمنعه ويكسبه الحصانة ، ويشعر كل من رآه أن حياته أعلى قيمة من حياة الآخرين

وقال كوتون : كثيراً ما تنتهي الصداقة بالحب ، ولكن لايمكن الحب أن ينتهي بصداقة

وقال لونجفيلو : ليس في حياتنا ما هو أقدس من الشعور بدبيب

الحب الأول ، تلك الرفرفة الأولى لأجنحته الحريرية ، وتلك الوسوسة الأولى تتعالى وتطفو ، وأنفاس تلك الريح تسارع إلى النفس فتغمرها ، فأما تطهرها وإما تدمرها

وقال كوتون : في الحب كما في الحرب ، يعزى نجاحنا إلى ضعف وسائل الدفاع أكثر مما يعزى إلى عنف الهجوم وسطوته

وقال دريدن : حسبك الحب جزاءً للحب

وقال ڤولتير : الحب لوحة الرسم ، تزودها الطبيعة ، ويوشيها الخيال

وقال هربرت : الحب كالسعال ليس من المستطاع إخفاؤه

وقالت مس جوزبري : الحب يطهر القلب من الأثرة ، ويمنح الخلق قوة ورفعة ، ويوجه الحياة في جميع الأعمال إلى المقاصد الشريفة ، ويزيد الرجل والمرأة كلاهما قوة وشرفاً وشجاعة . وخير هبة توهب لإنسان هي تلك القدرة على أن يحب حباً صادقاً أميناً . والحب نار مقدسة ، يجب أن لا توقد أمام الأصنام

وقال كار : لايحسن الإنسان الأداء عن الحب، إلا إذا كان لايشعر به

وقال سيجار : الحب كالقمر ، إذا لم يأخذ في الزيادة أخذ في النقصان

وقالت مس تشيلد : دواء جميع الأدواء ، وعلاج هموم الأنسانية وأحزانها وجرائمها ، هو الحب . فهو العنصر الحيوي الآلهي ، الذي يحدث الحياة ويردها . وهو إذا شئنا سبيل القوة وفعل المعجزات

وقال لاروشفوكو : قد يسلك الرجل الحكيم في حبه سلوك المجانين ، ولكنه لايسلك سلوك البله

وقال أيضاً : ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لايكون

وقالت نينون دولنكلو : لا قيمة في الحب لإفتقار الرجل إلى الجمال ، إذا لم تنقصه الصفات الأخرى المحبوبة . فأن القلوب لاتفتح إلا بالعطف، وليس الخلد أكثر عمى من المرأة العاشقة

وقال إلجز : الطاعة وقت الحب أخف محملاً من الحرية

وقال بولور : نيرات العشق هي كل ما تخلف لنا من لغة الفردوس

وقال إديسون : ليس يوجد في الحق نوع من الحب أكثر طهارة ، وأشبه بالملائكة ، من حب الوالد لأبنته . فهو يرمقها بالعين المجردة ، وبالعين التي تتلمح فيها جنسها . فحب الزوج لزوجته مشوب بالرغبة ، وحب الأب لأبنه مشوب بالطمع ، أما حب الأب لأبنته ففيه شيء لاتستطيع اللغة التعبير عنه

وقال بترارکه : الحب هو النعمة التي تتوج بها الأنسانية . وهو أيضاً أقدس صفوق النفس . وهو الحلقة الذهبية التي تربطنا بالواجب والحق . وهو المبدأ الفادي الذي يصالح بين القلب والحياة . وهو بشير السعادة الأبدية

وقال شبانهيم : ليس حواريو المسيح الحقيقيون هم الذين يتفوقون في

مقدار المعرفة ، وإنما هم أولئك الذين يتفوقون في مقدار الحب

وقال وطس : ليس يحتاج الأنسان من العواطف إذا كان سيعيش عيشة أبدية إلا لعاطفتين فقط : الحب ، وتأمل العزة الآلهية

وقالت مارجريت فولر : حِب المرأة ساعة من الحب ، تعرف منها علاقتها الحقيقية ، أكثر مما تعرف من جميع الفلسفات

أنطونيوس وكليوبطره

ليس في سير الحب القديمة ما هو أشهر من سيرة كليوبطره ملكة مصر الأغريقية أو بالأحرى المقدونية . فقد وضع المؤلفون القصص والدرامات والتواريخ والقصائد ، ومثل غرامها المصورون والنقاشون والمثالون . وأكبر ما يجذب الناس إلى قراءة سيرتها ، غرابة الأطوار التي تطورتها حوادثها ، والنهاية المفجعة التي أنتهت إليها ، وعظم التضحيات التي ضحي بها كل من المحبين أنطونيوس وكليوبطره

وكثرة هذه السير تزيد تاريخها إبهاماً بدلاً من أن توضحه . فقد ضرب أكثر من كَتَب عنها بسهم في الخيال ، وأكثر من التزويق والتزين، شأن القصاص ، حتى صارت الحواشي تغطي على المتن . وحتي صار يشق على المؤرخ إستخلاص الحقائق من الأوهام

فقد كانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم البطالمة ، وهم سلالة مقدونية إغريقية كانت تمت إلى الأسكندر بالقرابة . وكان مؤسس أسرة البطالمة قائداً عند الأسكندر . وكانت الأسكندرية في وقت كليوبطره أكبر ميناء على البحر الأبيض المتوسط ، ومركز التجارة بين آسيا

وأوروبا وأفريقيا . وكان أكثر سكانها من الأغريق ، وكانت لهم مكتبة كبرى وجامعة يتعلمون فيها . فكان الوسط كله إغريقيا ، تكسوه الحضارة الأغريقية ، وتسمع فيه اللغة الأغريقية ، وتسيطر عليه الثقافة الأغريقية في الفنون والعلوم

وأرتفعت كليوبطره إلى عرش مصر وهي في السابعة عشرة . وكانت الأسكندرية قاعدة البلاد وكرسي الحكومة . وكان يبلغ سكانها نحو مليون نفس ، وتبلغ المكوس المضروبة على البضائع في جماركها نحو خمسة ملايين جنيه . وكانت صناعات الكتان والبردي والزجاج والأقمشة رائجة فيها . وكان خُمس مساحة المدينة خاصاً بقصور الأسرة المالكة والمكتبة والمتحف ، تحفها وتتخللها جميعها البساتين والتماثيل والمسلات وما إليها. وقد شبهها المؤرخ الأيطالي فيريرو بباريس هذه الأيام ، لوفرة ما كان فيها من وسائل الحضارة والترف

ولما أرتقت كليوبطره إلى العرش ، كانت تبعاً للسنن المتبعة في الأسرة المالكة مخطوبة إلى أخيها ، وكان لا يزال بعد صبياً في الثانية عشرة من عمره ، وكان عليه أوصياء سوء ، أرادوا أن يستفيدوا من صغر سنه، فنفوا أخته عن المدينة ، وولوه العرش وحده

وكانت هذه النكبة الأولى مهمازاً لكليوبطره ، تنبهت منه أعصابها وتذكى عقلها . فبادرت إلى الذهاب إلى سوريا حيث ألفت جيشاً وعادت به إلى مصر

وفي هذه الأثناء كان يوليوس قيصر القائد الروماني قد أحتل الأسكندرية . ولم تكن تجدي فيه المقاومة ، لأن جيشه فضلاً عما كان له من شهرة البسالة والصمد في القتال ، وسائر الصفات التي تتسم بها الجيوش الرومانية ، كان يقوده أبرع قائد في ذلك الزمان وهو قيصر . وأقتصر الملك ونصحاؤه على كسب رضاه وثقته ، وجاءت كليوبطره تنافس أخاها في إكتساب هذه الثقة . وكان أخوها أكثر منها ناصراً، ولكنها كانت تمتاز عليه عند قيصر بجمالها وفتنتها

وأتفق أكثر المؤرخين على أنها لم تكن جميلة ، فقد كان أنفها كبيراً. ولكن الفتنة كانت في نفسها وخفة روحها . فقد وصفها المؤرخ بلوطارخ بقوله :

« لم يكن جمالها بحيث لا يمكن أن يقرن إلى جمال غيرها ، ولم يكن من الروعة بحيث يؤثر في الناظر عند أول رؤيته لها . ولكن تأثيرها في الأنسان إذا بقي مدة قصيرة في حضرتها ، لم يكن مما تمكن مقاومته . فقد كانت شخصيتها ، وحلاوة حديثها ، وذلك الطابع تطبع به ما تقوله أو تعمله ، من السحر بحيث تستأثر الأنسان . وكان مما يلذ للإنسان أن يسمعه موسيقى صوتها الذي كان يشبه آلة وترية تختلف فيه الأنغام »

وأحتالت كليوبطره لكي تصل إلى يوليوس قيصر وتضمه إلى حزبها ، فينصرها على أخيها . وكانت جيوش أخيها تحجز بينها وبينه . فوضعت نفسها في بساط لفته حولها ورُبط عليها . وأحتملها خادم أمين لها ،

ونزل في زورق صغير حتى وصل إلى حيث كان قيصر . فأنزل الخادم البساط ، وطلب إلى حرس قيصر أن يؤذنوه بوصول هدية إليه . فأذن قيصر في حمل الهدية . فما هو أن وضع البساط أمامه ، وفكت الحبال المربوطة حوله ، حتى خرجت منه كليوبطره

وكان قيصر شجاعاً جريئاً ، فلا بدع أن يعرف قيمة الشجاعة والجرأة في غيره . فأحبها وأقرها على عرش مصر دون أخيها . وحكمت البلاد منذ تلك الساعة نحو ست سنوات حكم العدل والحكمة . ثم مات قيصر في رومية مقتولاً ، متهماً بالطموح إلى الأستبداد وإلغاء الجمهورية، وكانت كليوبطره قد ولدت له ولداً سماه قيصرون

وظهر في العالم الروماني عقب موت قيصر رجلان أقتسما هذا العالم بينهما . أولهما أوكتافيوس الذي أستولى على الجزء الغربي منه ، وثانيهما أنطونيوس الذي أستولى على الجزء الشرقي

وأخذت كليوبطره تحسب وتقدر أيهما أفضل ، لكي تنضم إليه وتستعين بقوته . فبقيت في ترجيح وتردد حتى توجس منها أنطونيوس فأستدعاها . وكان في ذلك الوقت ضارباً خيامه في كيليكه وجيوشه تحوطه . وكان أنطونيوس يمت بصلة الرحم إلى يوليوس قيصر نفسه ، وكان شجاعاً من هواة الجندية . وقد قضى بعض شبابه في لذاذات الشباب وسرف الفتوة . فأنفق نحو مائة ألف جنيه على الخمور والنساء وما إليهما . ولكنه كان عندما يجد الجد وتعلن الحرب ، يصير من

مساعيرها ، يقاتل فيها ويدبر لعدوه المكايد ويصمد له حتى يفوز

ولم تكن ثم مندوحة لكليوبطره من أن تلبي دعوته . فألفت أسطولاً صغيراً وسارت إلى كليكيه عبر البحر الأبيض المتوسط حتى بلغتها ، وصعدت إلى نهر كيدنوس حيث كان أنطونيوس وجيوشه . وكانت سفينتها غاية في الزينة ، وقد توسطتها في أفخر لباسها ، ووقف جواريها سمطين أمامها في أبهى الحلل وأجمل الزينات . ولما وقفت سفينتها ، وجه إليها أنطونيوس يدعوها إلى العشاء ، فأرسلت هي إليه تدعوه إلى السفينة

وكانت الوليمة المعدة لأنطونيوس قد هيئت بضروب الألوان الشرقية والغربية ، وصفت على المائدة أكواب الشراب ، وأضيئت آلاف الشموع تحترق فتخرج منها أنفاس الطيب ، وتعبق فوقها سحابات من دخان العطور المختلفة . وجاء أنطونيوس من خيامه ، وكان قد مضى عليه زمن وهو يعيش عيشة المعسكرات ، بما فيها من شظف وخشونة . فرأى في الفراش الوثير ، والطعام اللذيذ ، والشراب الفاخر ، والجمال الفتان ، ما سحر لبه ، وأسر قلبه وقيده إليها

ولم تكن كليوبطره قد أحبت قبلاً ، لأن علاقتها بيوليوس قيصر كانت قائمة على المصلحة لا على العشق . أما الآن ، فقد وجدت في أنطونيوس شخصاً فتياً ، يلبي شهواتها ويعشقها ، لايبرحها طوال ليله ونهاره . فعشقته وعلقته . وربما كان يشوب هذا العشق شيء من مراعاة

المصلحة من كلا الجانبين ، ولكن ليس شك في أنهما أخلصا الحب ، وتصافيا كؤوسه حتى الممات

وبقى كلاهما معاً نحو عشر سنوات لم يفترقا إلا مرة واحدة ، حين ذهب أنطونيوس في حملة في إحدى جهات آسيا . وقد ذكر بلورتاخ أن أنطونيوس قال مرة ، أن التمليق أربعة أنواع ، أما كليوبطرة فعندها منه ألف نوع . وهذا وحده يدل على سحر حديثها

قال بلوتارخ :

« كانت كليوبطرة على أستعداد دائم لأن تسر أنطونيوس وتمتعه سواء أكان في حال الجد أم في حال اللهو . وكانت تلازمه ليل نهار ، تلاعبه النرد ، وتشرب معه ، وتخرج معه إلى الصيد تقتنص معه ، وإذا كان وقت المران على القتال وقفت أمامه تعجب به وتصفق له »

ثم حدث النزاع بين أكتافيوس وأنطونيوس ، أيهما يسود العالم . وقد كان أكتافيوس يضمر السوء لأنطونيوس ، ويتربص به الدوائر ، لأن أنطونيوس كان متزوجاً أخت أكتافيوس ، وكان قد هجرها عندما علق كليوبطره . وتهيأ كلا الفريقين للقتال ، وأعد كل منهما أسطولاً ، والتقيا في أكتيوم . وكانت كليوبطره تصحب أنطونيوس ، إذ لم يكن يقدر على فراقها . ودار القتال برهة ، ظنت فيها كليوبطره أن أسطول عشيقها قد إنهزم ، فأمرت ربانها بالفرار . ولم تكن الهزيمة قد تأكدت ، ولكن قلب المرأة يساوره الهلع في ساعة الشدة ، التي لم يخلق لها إلا

الرجال . ورأى أنطونيوس سفينة كليوبطرة تولي الإدبار . فجن جنونه ، وأستطير ، وأمر أسطوله أن يدركها ، وهنا بانت الهزيمة الأولى

وتحصن أنطونيوس بالأسكندرية ، ولكن أكتافيوس هزمه مرتين ، حتى سلمت له جميع جيرشه . وعرفت كليوبطره عندئذ أنه قد قضي عليها هي وحبيبها ، وأنها لابد أن تقع أسيرة ، وتقاد في شوارع رومية مقيدة بالأغلال من الذهب ، وينظر إليها جمهور تلك العاصمة بين الأستهزاء والتشفي . فأشاعت في الأسكندرية أنها ماتت ، حتى يكف أكتافيوس عن البحث عنها ، وتبحث هي في خلال ذلك عن طريقة للنجاة . وبلغت الأشاعة أنطونيوس فأنتحر ، بأن غرز سيفه في بطنه . وبلغ ذلك كليوبطره فأنتحرت هي الأخرى

جميل وبثينة

كان جميل شاعراً ، نشأ في قومه بني ربيعة بوادي القرى بين المدينة ومكة ، فأحب فتاة تدعى بثينة من بنات قومه . وكان قد علقها صغيراً فأشتهر حبهما ، ووصل خبره إلى أبيها . وكان من شر العادات عند العرب أنه إذا أشتهر حب بين أثنين ، منع أبو الفتاة المحبوبة زواجها من حبيبها ، وذلك خشية أن يتقّول الناس عن سابق العلائق التي كانت بينهما قبل الزواج

فأمتنع أبوها عن تزويجه ، فصار جميل يشبب بها ، ويؤلف القصائد في وصفها ومقدار حبه لها . وربما كان غرضه من ذلك أن يلقي الشك في قلوب الأغراب ، فيشعرهم بأن علاقته بها شديدة . ويكون من أثر ذلك فيهم أن يمتنعوا عن طلبها لأنفسهم من أبيها

وكان ذلك في عصر الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان . فأستعدى أهل الفتاة الوالي لكي يكف جميل عن التشبيب ببثينة . وبلغ ذلك جميلاً ، ففر إلى الشام ، ونزل عند أحد وجوه بني عذرة ، وكان يعرف خبره ويرحمه لما هو فيه من البلوى . ومما يحكى أن هذا الرجل

أحتال على جميل لكي ينسيه حبه ، فزين سبع بنات ، فكن يتصدين له متبرجات ، ويعاودن ذلك حتى يعلق إحداهن . ففطن جميل للحيلة ، وصد عنهن ، وقال في ذلك :

حلفت لكيما تعلميني صادقاً ... وللصدق خير في الأمور وأنجح

لتكليم يـــوم واحد من بثينة ... ورؤيتها عنـــدي ألذ وأمـلح

لرؤية يـــوم واحد من بثينة ... ألذ من الدنيـــا لدي وأمـلح

وكان جميل يضرب المواعيد لبثينة ويلتقيان في الخلاء . وقد روى الأغاني : « إن بثينة لما أخبرت أن جميلاً قد نسب بها ، حلفت بالله لا يأتيها على خلاء ، إلا خرجت إليه لا تتوارى منه . فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث إليها ومع أخواتها »

وهذا يدل على أنهما تصافيا الحب ، وكان كلاهما محباً . وقد أكثر فيها من نظم القصائد التي كانت تنال إعجاب الفرزدق وعمر ابن أبي ربيعة

فمن ذلك قوله :

ألا ليت شعري هـــل أبيتن ليلة ... بوادي القرى إني إذن لسعيـد

وأهـــل ألقين فرداً بثينة مـــرة ... تجود لنا من ودها ونجـــود

علقت الهوى منها وليداً، فلم يزل ... إلى اليوم ينمي حبها ويزيـــد

وأفنيت عمري بإنتظاري وعدهـا ... وأبليت فيها الدهر وهو جديـد

فلا أنا مردود بما جئـت طالبـــاً ... ولا حبهـــا فيمـــا يبيد يبيـد

وما أنس م الأشياء لاأنسى قولها وقد قربت نضوي : أمصر تريد؟

ولا قولها : لولا العيون التي ترى لزرتك فاعذرني فدتك جــدود

خليلي ما ألقى من الوجــد قاتلي ودمعي بما قلت الغداة شــهيـد

يقولــــون : جاهـد ياجميل بغزوة وأي جهـــــاد غيرهن أريـــد؟

لكـــل حديث بينهن بشاشـــــة وكل قتيـــــل عندهن شــهيد

روى الأغاني : بقي جميل بثينة ، بعد تهاجر كان بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلاً فقالت له : ويحك يا جميل ، أتزعم أنك تهواني وأنت الذي تقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلاً يبكي ، ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتني أعمى أصـــم تقودني بثينة لايخفى عليّ كلامها

فقالت له : ويحك ! ما حملك على هذه المنى؟. أوليس في سعة العافية ما كفانا جميعاً ؟

ومما ذكر عنهما هذه الحكاية التالية :

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما إن جميلاً عندها الليلة . فأتياه مشتملين على سيفين . فرأياه جالساً حجزة منها يحدثها ويشكو إليها بثه . ثم قال لها: يا بثينة ، أرأيت ودي إياك وشغفي بك، ألا تجزينه؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين . فقالت له : يا جميل أهذا تبغي ؟ والله لقد كنت عندي بعيداً منه ، ولئن عاودت

تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً . فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه . ولو علمت أنك تجيبينني إليه لأدركت أنك تحبين غيري . ولو رأيت منك مساعدة عليه ، لضربتك بسيفي هذا ما أستمسك في يدي ، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد . أو ما سمعت قولي :

وإنــي لأرضى من بثينـة بالـذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا، وبأن لا أسـتطيع وبالمنـى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي ... أواخـــره، لا نلتقي وأوائله

فقال أبوها لاخيها : قم بنا فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها . فأنصرفا وتركاهما

وتزوجت بثينة من آخر غير جميل ، ولكنها بقيت تحفظ عهده ويزورها خفية في بيت زوجها ، إلى أن علم زوجها بذلك فشكاه للوالي ، فأهدر دمه إذا عاود . فأنقطع جميل عن الزيارة

روى بعضهم أنه لما مُنع جميل من زيارة بثينة ، ضاقت به الدنيا ، فكان يصعد بالليل على ربوة عالية يتنسم منها الريح من نحو حي بثينة ويقول:

أيا ريح الشمال أمــا تريني ... أهيم ، إنني بادي النحول
هبي لي نسمة من ريـح بثن ... ومني بالهبـوب إلى جميل
وقولي يا بثينة حسب نفسي ... قليلك أو أقـل من القليل

فإذا بدا وضح الصبح أنصرف ، وكانت بثينة تقول لجوار من الحي عندها : ويحكن ! إني لأسمع أنين جميل من بعض الغزلان . فيقلن لها: أتقي الله ، فهذا شيء يخيله لك الشيطان لا حقيقة له

وقد كان يتنكر أحياناً ويتخذ من اللباس ما يخفي به حقيقة شخصه، ثم يزورها ويجلس مع سائر الضيوف ، فلا يعرف أحد أمره سواها . فمن ذلك ما رواه بعضهم أن جميلاً جاء إلى بثينة ليلة ، وقد أخذ ثياب راعٍ لبعض الحي ، فوجد عندها ضيفانا لها . فأنتبذ ناحية . فسألته : من أنت؟. فقال : مسكين . فجلس وحده . وعشت ضيفانها ، وعشته وحده. ثم جلست هي وجارية لها على صلاتهما وأضطجع القوم منتحين . فقال جميل : هل البائس المقرور دان فمصطلٍ من النار ، أو معطى لحافاً فلابس؟

فقالت لجاريتها : صوت جميل والله ، أذهبي فأنظري . فرجعت إليها وقالت : هو والله جميل . فشهقت شهقة سمعها القوم فأقبلوا يجرون ، وقالوا : ما لك ؟. فطرحت برداً لها من حيرة في النار وقالت : أحترق بردي . فرجع القوم . وأرسلت جاريتها إلى جميل فجاءتها به . فحبسته عندها ثلاث ليال . ثم سلم عليها وخرج

قال الأغاني : لما أهدر أهل بثينة دم جميل ، وأباحهم السلطان قتله، أعذروا إلى أهله . وكانت منازلهم متجاورة .. فمشت مشيخة الحي إلى

أبيه ، وكان يلقب صباحاً . وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله . فشكوه إليه ، وناشدوه الله والرحم ، وسألوه كف أبنه عما يتعرض له ويفضحهم به في فتاتهم . فوعدهم كفه ومنعه ما أستطاع ، ثم أنصرفوا . فدعا به، وقال له : يا بني حتى متى أنت عمه في ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل . ثم تقوم إليك فتغرك بخداعها ، وتريك الصفاء والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلا وغروراً . فإذا أنصرفت عنها ، عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة . إن هذا لذل وضيم . ما أعرف أخيب سهماً ، وأضيع عمراً منك . فأنشدك الله ألا كففت وتأملت أمرك ، فإنك تعلم أن ما قلته حق . ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها . ولكن هذا أمر قد فات وأستبد به من قدر له ، وفي النساء عوض . فقال له جميل: الرأي ما رأيت ، والقول كما قلت ، فهل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن يسلي نفسه ، أو أستطاع أن يدفع بما قُضي عليه . والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي ، أو أزيل شخصها عن عيني ، لفعلت . ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي . وأنا أمتنع من طروق هذا الحي ، والإلمام بهم ، ولو متُّ كمداً . وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه . وقام وهو يبكي ، فبكي أبوه ومن حضر

ويروي أنه على الرغم من هذه الأخطار التي كانت تحول دون لقاء

بثينة بجميل ، فقد إلتقيا وودعها ، وأنصرف من وادي القرى الي مصر حيث مات !

وجميل من الشعراء الذين يمتازون بصدق اللهجة والإحساس ، فكان نسيبه يعبر عن عاطفة صادقة لا رياء فيها . وكثيراً ما يحس الإنسان آلامه وهو يشكو . ومن أجمل ما نظم حين صدت عنه بثينة قوله :

فيا قلـــب دع ذكرى بثينة أنهـــــا
وإن كنت تهواهـــــــا تضن وتبخـــل

وقد أيأســـت من نيلهـــا وتجهمت
ولليأس إن لم يقـــــدر النيـــــل أمثل

وإلا فسلها نـائلاً قبـلَ بينهــــــا
وأبخل بهـــــا مســـؤولة حين تُسـأل

وكيف ترجي وصلها بعـــد بعدهـــا
وقد جــــز حبل الوصـــــل ممن تؤمل

وإن التي أحببت قد حيـل دونهـــا
فكن حازمـــاً والحـــــازم المتحول

ففي اليأس ما يسلي، وفي الناس خلة
وفي الأرض عمـــن لا يؤاتيــــك معزل

بدا كلفٌ مني بهـــــــا فتثاقلت
ومـا لا يرى من غـائب الوجـــد أفضل

يزيـــد وحبـــابة

كان يزيد بن عبد الملك من خلفاء الدولة الأموية ، وكان يعشق جارية تدعى حبابة ، عرفها مغنية جميلة فأشتهاها ، ثم أحبها وأخلص في حبه حتى بلغ من جزعه على فقدها أن مات بعد موتها بخمسة عشر يوماً

ولا يُعرف هل كانت حبابة تحبه بمقدار ما أحبها . فقد نشأت نشأة القيان، ولابست تلك الظروف التي تلابس تربية القيان وعشرتهن ، وما فيهما من سرف في الشهوات والملذات .ومثل هذه العيشة تبلد الحواس، وتزيل منها رقتها ، وقلما يجد الحب المخلص مجازاً إليها في هذه الظروف .

فقد كانت حبابة تسمى العالية ، وهي من مولدات المدينة ، وكانت حلوة جميلة الوجه ظريفة ، حسنة الغناء طيبة الصوت ضاربة بالعود . وأشتراها يزيد بألف دينار قبل أن يرقى عرش الخلافة . وبلغ ذلك سليمان خليفة الأمويين ، فهم بالحجر عليه لسفهه وإنفاقه هذا المبلغ الكبير ثمناً للجارية . فردها يزيد إلى مولاها . ثم مات سليمان بعد ذلك وصار يزيد خليفة ، وكانت زوجته سعدة تعرف مكانة هذه الجارية

في قلبه ، وتعلم أنه لابد طالبها . فأشترتها . فلما حصلت عندها ، قالت ليزيد : هل بقي عليك من الدنيا شيء لم تنله ؟. فقال : نعم العالية . فقالت : هذه هي ، وهي لك . فسماها حبابة ، وعظم قدر سعدة عنده . ويقال أنها أخذت عليها قبل أن تهبها له ، أن توطيء لأبنها عنده في ولاية العهد، وتُحضرها بما تحب

وبقيت حبابة أثيرة عند يزيد ، فكان كلفاً بها يلازمها في طعام وشراب وغناء . وكان رجالات بني أمية يلومونه على إستهتاره وتعلقه بهذه الجارية ، فيردهم ولا يسمع لهم . وكانت هي من ناحية أخرى لاتدرك شيئاً من مصالح الأمة أو مصالح الخلافة ، فكانت تستخدم جميع الأساليب النسائية في جذبه وتعلقه بها

فقد ذُكر أن مسلمة أقبل على يزيد يلومه في الألحاح على الغناء والشرب ، وقال له : أنك وليت بعقت عمر بن عبد العزيز وعدله . وقد تشاغلت بهذه الأمة عن النظر في الأمور . والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصبحون ، وأنت غافل عنهم . فقال يزيد صدقت والله ، وهم بترك الشرب ، ولم يدخل على حبابة أياماً . فدست حبابة إلى الأحوص أن يقول أبياتاً في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه فلك ألف دينار . فألف الأحوص جملة أبيات ، ودخل على يزيد وأنشده :

ألا لا تلمـــه اليـــــوم أن يتلبـــدا

فقـــد غلـــب المحـــزون أن يتجـــلدا

بكيت الصبا جهدي، فمن شاء لا مني

ومن شـــاء آسى في البكاء وأسـعدا

وإني وإن فندت في طـــلب الغنى

لأعلم أنى لسـت في الحـب أوحدا

إذا أنت لم تعشق، ولم تدر ما الهوى

فـكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فما العيـش إلا مـا تلذ وتشتهي

وإن لام فيـه ذو الشـنان وفندا

فلم يتحرك يزيد إلى حبابة بهذا الأغراء وبقي أسبوعاً لايطلبها . فلما كان أحد الأيام قالت حبابة لبعض جواريها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلميني . فلما أراد الخروج أعلمتها ، فتلقته والعود في يدها فغنت البيت الأول . فغطى يزيد وجهه وقال : مه لاتفعلى . ثم غنت : فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي . فعدل إليها وقال : صدقت والله، فقبح الله من لامني فيك . ياغلام : مُر مسلمة أن يصلي بالناس. وأقام معها يشرب وتغنيه

وكان عند يزيد جارية أخرى تحكم الضرب والغناء أكثر من حبابة . وكانت تدعى سلأمة. وكان يزيد يؤثر حبابة عليها لمكانها في قلبه ، ويشهد كذباً بفضلها عليها . والحكاية التالية التي ذكرها الأغاني تمثل بعض خلال يزيد ، ومبلغ إستهتاره وطربه :

أختلفت حبابة وسلأمة في غناء هذا البيت :

وترى لهـــا دلاً إذا نطقـت به   تركت بنـــات فـــؤاده صعرا

فـقال يزيد : من أين جاء إختلافكما والصوت لمعبد ومنه أخذتماه . فقالت هذه : هكذا أخذته . وقالت الأخرى : هكذا أخذته . فقال يزيد قد أختلفتما ومعبد حي بعد . فكتب إلى عامله بالمدينة يأمره بحمله إليه .. فلما دخل معبد إليه ، لم يسأله عن الصـوت ، ولكنه أمره أن يغني . فغناه :

فيا عز ان واشٍ وشى بي عندكم   فلا تكرميه أن تقولي له مهلا

فـأستحسنه وطرب . ثم قـال : إن هاتين أختلفتا في صـوت لك ، فاقض بينهما

فقال لحبابة : غني . فغنت . وقال لسلأمة : غني . فغنت . فقال : الصواب ما قالت حبابة . فقالت سلأمة : والله يا أبن الفاعلة أنك لتعلم أن الصواب ما قلت ، ولكنك سألت أيتهما آثر عند أمير المؤمنين . فقيل لك حبابة فأتبعت رضاه وهواه . فضحك يزيد وطرب ، وأخذ وسادة فصيرها على رأسه ، وقام يدور في الدار ويرقص ويصيح : السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيان . حتى دار الدار كلها ، ثم رجع ، فجلس في مجلسه ، وأنشأ هذين البيتين :

أبلغ حـبابة أسقى ربعها المطـر   ما للفؤاد سـوى ذكراكمو وطر

ان سار صحبي لم أملك تذكركم   أو عرسوا فهموم النفس والسهر

فغناهما معبد ، وطرب يزيد

وقيل في وفاة حبابة أن يزيد بن عبد الملك نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة . فقال يزيد زعموا أنه لا تصفو لأحد عيشة يوماً إلى الليل إلا يكدرها شيء عليه . وسأجرب ذلك . ثم قال لمن معه : إذا كان غد ، فلا تخبروني بشيء ، ولا تأتوني بكتاب . وخلا هو وحبابة فأتيا بما يأكلان. فأكلت رمانة ، فشرقت بحبة منها فماتت . فأقام لا يدفنها ثلاثاً ، حتى تغيرت وأنتنت وهو يشمها ويرشفها . فعاتبه على ذلك ذوو قرابته ، وهابوا عليه ما يصنع . وقالوا : قد صارت جيفة بين يديك . فأذن لهم في غسلها ودفنها . فأخرجت في نطع ، وخرج معها لا يتكلم، حتى جلس على قبرها . فلما دفنت قال : أصبحت والله كما قال كثير:

فإن يسل عنك القلب أو يدع الصبا

فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

فما أقام إلا خمس عشرة ليلة حتى دفن إلى جنبها

وقيل في حكاية أخرى أنه أشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها ، فقال : لابد من أن تنبش . فنبشت ، وكشف له عن وجهها ، وقد تغير تغيراً قبيحاً . فقيل له : يا أمير المؤمنين أتق الله ألا ترى كيف قد صارت؟. فقال : ما رأيتها قط أحسن منها اليوم . أخرجوها . فجاءه مسلمة ووجوه أهله ، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها . وأنصرف ، فكمد كمداً شديداً ، حتى مات فدفن إلى جانبها

وقد روى الأغاني أنه لما ماتت حبابة ، لم يستطع يزيد الركوب من الجزع ولا المشي . فحُمل على منبر على رقاب الرجال . فلما دفنت قال : لم أصل عليها ، أنبشوا عنها . فقال له مسلمة : نشدتك الله يا أمير المؤمنين ، إنما هي أمة من الأماء ، وقد واراها الثرى . فلم يأذن يزيد للناس بعد حبابة إلا مرة واحدة .. ولم ينشب أن مات كمداً

فليس يشك من هذه الروايات في أن يزيداً كان مخلصاً في حبه لهذه الجارية ، ولكن ليس هناك ما يدل على إخلاصها . ولو أخلصت لما تركته يستهتر كل هذا الأستهتار ، ويهمل شؤون الدولة . وربما لو طالت مدتهما معاً ، لكان يؤدي كلفه بها ، ولزومه إياها ، إلى خلعه . وليس يقوم الجهل عذراً لحبابة ، لأنها لم تكن مثل سائر النساء . فإن القيان كن يعلمن من الأدب ما ينير أذهانهن في مستوى الرجال معرفة بالتاريخ والأشعار ، وكن يتقلبن في مختلف المعايش ، فيكسبن بذلك تجارب قد لا يكسبها الرجال

كثير وعـــزة

ليس يعرف متي ولد كثير ، إنما المشهور أنه هلك في سنة ١٠٥ هجرية . وكان شاعراً مفلقاً يُقرن إلى جرير والأخطل والفرزدق ، وكان غالياً في التشيع ، يقول بالرجعة والتناسخ . وقد نسبه الأغاني ، فذكر من جدوده إمرء القيس البطريق ، وهذا يوهم أن أسرته كانت مسيحية قبل أن تدخل في الأسلام . وكان قصيراً دحداحاً ، وكان مع ذلك من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه . قال بعضهم :

« رأيت كثيراً يطوف بالبيت . فمن حدثك أنه يزيد عن ثلاثة أشبار فكذبه . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول له : طأطيء رأسك لاتصبه السقف .. »

وقد نشأ في البادية التي بين المدينة ومكة . ومدح الخلفاء ، وجوزي منهم بالتحف والألطاف

وكانت صاحبته التي كان يشبب بها ، وأكثر أشعاره فيها ، تدعى عزة . وقد روى القصاص قصته كما رووا سائر قصص المحبين في القرن الأول للهجرة ، مثل جميل وبثينة ، وقيس ولبنى ، بشيء من التزويق

والتحشية ، حتى صار يشق على الناقد أن يستخلص الحب من العصافة. والعجب في هؤلاء الرواة أنهم يسندون قصة خرافية ، لايمكن أن تصدق، إلى أشخاص معروفين في التاريخ الأسلامي ، حتى ليعجب الأنسان كيف وهم يزينون هذه الأباطيل بالأسانيد ، ويدعمونها بنسبتها إلى الثقات - نقول كيف يوثق بهم في سائر ما نقلوه إلينا من حوادث التاريخ ؟

وكان أول ما عرف كثير عزة ، أنه مر بنسوة ومعه جلب غنم . فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة . فقالت : يقلن لك النسوة بعنا كبشاً من هذه الغنم وأنسئنا بثمنه إلى أن ترجع . فأعطاها كبشاً وأعجبته . فلما رجع ، جاءته إمرأة منهن بدراهمه . فقال : وأين الصبية التي أخذت مني الكبش ؟. قالت : وما تصنع بها ؟. هذه دراهمك . قال : لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت الكبش إليها . وخرج وهو يقول :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وأخذ من ذلك الوقت يتعشقها ويتغزل بها ، يؤلف القصائد في وصفها ومدحها . وقد روت قسيمة الأسلمية قالت : « سارت علينا عزة في جماعة من قومها ، فسمعنا بها . فأجتمعت جماعة من نساء الحاضر أنا فيهن . فجئناها ، فرأينا إمرأة حلوة حميراء نظيفة . فتضاءلنا لها . ومعنا نسوة كلهن لها عليهن فضل من الجمال والخلق ، إلى أن تحدثت ساعة ، فإذا هي أبرع الناس وأحلاهم حديثاً . فما فارقناها إلا ولها

علينا الفضل في أعيننا . وما نرى في الدنيا إمرأة تروقها جمالاً وحسناً وحلاوة »

ولم يتزوجها كثير لتلك العادة التي أشرنا إليها ، وهي أن العرب كانت تستقبح تزويج بناتها لمن يشبب بهن . وكانت على الرغم من زواجها تلتقي خلسة بكثير ، فيطفيء نار شوقه ، ويؤلف القصائد يبترد بها من غليل الحب

روى كثير قال : « حججت سنة من السنين ، وحج زوج عزة بها ، ولم يعلم أحد منا بصاحبه . فلما كنا ببعض الطريق ، أمرها زوجها بإبتياع سمناً لتحضير طعاماً لأهل رفقته . فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتى دخلت إليّ وهي لا تعلم أنها خيمتي . وعَرفْته وأخذت منه السمن . وعرف زوجها أنها رأت كثيراً . فأمرها أن تعود إليه وتشتمه . فذهبت وقالت وهي تبكي : يا أبن الزانية . ثم أنصرفا

ووضع كثير قصيدة عن هذا اللقاء قال فيها عن هذا الزوج :

يكلفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولكن للمليك إستذلت

وبعض الرواة ينكر على كثير إخلاصه في حبه عزة . فقد قال أبو خليفة: كان كثير مدعياً ولم يكن عاشقاً ، وكان جميلاً صادق الصبابة والعشق . وروى الأغاني هذه القصة عنه :

ومما وجدناه في أخباره ولم نسمعه من أحد أنه نظر إلى عزة ذات يوم وهي منتقبة تميس في مشيتها . فلم يعرفها كثير فأتبعها ، وقال : يا

سيدتي قفي حتى أكلمك ، فاني لم أر مثلك قط . فمن أنت ويحك ؟.
قالت ويحك !. هل تركت عزة فيك بقية لأحد ؟. فقال : بأبي أنت والله لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك . قالت : هل لك في المخاللة ؟. قال : وكيف لي بذلك . ؟

فسفرت عن وجهها ، ثم قالت : أغدراً يا فاسق ، وإنك لهكذا ؟.
فأبلس ولم ينطق . وتأثر من هذه الحادثة ، وقال فيها هذه الأبيات :

ألا ليتني قبل الذي قلت شيب لي
من السم خضخاض بماء الذراح
أقمت ولم تعلـــــــم على خيانة
وكم طالب للربح ليس برابـــح

ومات كثير ، فما تخلفت امرأة بالمدينة عن جنازته . وكن يندبن ، ويذكرن عزة في ندبهن

وعاشت عزة بعده مدة ، ويقال أنه لما شاعت أشعار كثير وصار المغنون يتغنون بها ، وجرى ذكره وذكر عزة في سمر عظماء الدولة ، طلب عزة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي . فلما مثلت بين يديه ، وكانت عجوزاً ، قال لها : « أنت عزة كثير التي يقول فيها :

لعزة نار ما تبوخ كأنهـــا إذا ما رمقناها من البعد كوكب

فما الذي أعجبه منك ؟»

فقالت عزة : « كلا يا أمير المؤمنين . فو الله لقد كنت في عهده

أحسن من النار في الليلة القرة »

فقال الخليفة : « هل تروين قول كثير فيك :

وقد زعمت أني تغيرت بعدها   من ذا الذي يا عــز لا يتغير ؟

تغير جسمي والخليفة كالتـي   عهدت ولم يخبر بسرك مخبر »

فقالت عزة : « ولكني أروي قوله :

كأني أنادي صخرة حين أعرضت

من الصم لو تمشي بها العصم زلت

صفوحـــاً فما تلقاك إلا بخيلة

فمن مل منها ذلك الوصـــل ملت»

قيــس ولبــنى

كان قيس بن ذريح من سكان بادية المدينة ، وكان رضيع الحسين بن على بن أبي طالب . وسبب علاقته بلبنى بنت الحباب أنه ذهب لبعض حاجاته ، فمر بحيها وقد أحتدم الحر . فأستسقى من إحدى الخيام ، فبرزت إليه فتاة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام . فناولته إداوة ماء . فلما روي وهم بالذهاب قالت له : ألا تبرد وترتاح عندنا ؟. فأجابها . فمهدت له وطاء ، وقدمت إليه مايحتاج إليه . وجاء أبوها ، فلما وجده رحب به ونحر له جزوراً . فأقام عندهم بياض اليوم ، ثم أنصرف وهو أشغف الناس بها . فجعل يكتم ذلك إلى أن طما به الحب ، فعاد إلى زيارتها ، وشكا إليها مايجد من حبها ، فوجد عندها أضعاف ذلك . فأنصرف وهو في أشد الغبطة

ومضى إلى أبيه ، وبث إليه حاله . فقال له : دع هذه ، وتزوج إحدى بنات عمك . فلجأ إلى أمه ، فكان رأيها رأي أبيه . فذهب إلى الحسين بن على ، وأخبره بقصته وأستنجد به . فرثي له ، وتعهد أن يكفيه هذا الشأن . ومضى معه إلى أبي لبنى فسأله في ذلك ، فأجابه بالطاعة

وقال: يا أبن رسول الله ، لو أرسلت لكفيت ، بيد أن هذا من أبيه أليق، كما هي عادات العرب

وذهب الحسين إلى أبي قيس وحمله على تزويج أبنه من لبنى ، وعاش المحبان معاً نحو عشر سنوات ، تبين منها أن لبنى عاقر . وكان والدا قيس يرغبان في نسله ، فعرضا عليه تطليقها والتزوج من أخرى تأتيه بما يطمعان فيه من الولد . فأمتنع إمتناعاً يؤذن بأستحالة ذلك . وأخذ يدافعهما ، إلى أن أقسم أبوه لايكنه سقف أو يطلق قيس لبنى . وكان قيس شديد الحب للبنى . فكان إذا أشتد الهجير ، خرج إلى أبيه وأظله، وأصطلى هو بالشمس . فإذا جاء الظل ، تركه ودخل إلى لبنى يبكي

وأطرد هذا الحال مدة ، حتى قدر في النهاية أن يطلقها . فجاء أهلها وحملوها إليهم ، وزوجوها من آخر . ولم يبق لقيس سوى الحسرة والندم والتفجع . فكان يؤلف القصائد يذكر حبه لها ، وأيامه الماضية ، وما لقي من فراقها . فمن ذلك قوله :

يقولـــون لبنى فتنة كنت قبلهـــا

بخير فلا تنـدم عليها وطلــق

فطاوعت أعدائي وعاصيت ناصحي

وأقررت عين الشـــامت المتملق

وددت وبيــت الله أني عصيتهـــم

وحملت في رضوانها كل موثق

وكلفت خوض البحر والبحر زاخر

أبيت على أثباج موج مفرق

كأني أرى الناس المحبين بعدها

عصارة ماء الحنظل المتفلق

فتنكر عيني بعدها كل منظر

ويكره سمعي بعدها كل منطق

وسعى أبوه حتى زوجه من إمرأة فزارية . ولكنه لما أدخلت عليه زوجته لم يدنو منها ولا خاطبها بحرف ، ولا نظر إليها ، وأقام على ذلك أياماً كثيرة . ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه أياماً ، فأذنوا له في ذلك . فمضى لوجهه إلى المدينة ، وكان له صديق من الأنصار بها فأتاه. فأعلمه الأنصاري أن خبر تزويجه بلغ لبنى فغمها ، وقالت : إنه لغدار ، ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج ، فأنا الآن أجيبهم . وقد كان أبوها شكا قيساً إلى معاوية ، وأعلمه تعرضه لها بعد الطلاق . فكتب إلى مروان بن الحكم يهدر دمه إن تعرض لها ، وأمر أباها أن يزوجها رجلاً يُعَرف بخالد بن حلزة . فزوجها أبوها منه . فجزع قيس جزعاً شديداً ، وجعل ينشج أحر نشيج ، ويبكي أحر بكاء . ثم ركب من فوره حتى أتى محلة قومها وموضع خبائها ، فنزل عن راحلته ، وجعل

يمرغ خده على ترابها

ومما قاله يرثي حاله ويعزي نفسه في ذلك الوقت :

إن تك لبنى قد أتى دون قربهـا
حجاب منيع ما إليه سـبيل

فإن نسيم الجـو يجمع بيننـا
ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي
ونعلم أيا بالنهـار نقيل

وتجمعنا الأرض القـرار وتوقنا
سماء نرى فيها النجوم تجول

ومن ذلك قوله أيضاً :

فإن تكن الدنيا بلبنى تقلبت
عليّ ، فللدنيا بطـون وأظهر

لقد كان فيها للأمانة موضع
وللكف مرتـاد وللعين منظر

وللحائم العطشان ري بريقها
وللمـرح المختال خمر ومسكر

كأني لها أرجوحة بين أحبل
إذ ذكرة منها على القلب تخطر

روى الأغاني أن قصائد قيس ذاعت وأشتهرت ، وغنى في شعره الغريض ومعبد ومالك. فلم يبق شريف ولا وضيع إلا سمع بذلك فأطربه ، وحزن لقيس مما به . وجاء زوج لبنى إليها فأنبها على ذلك وعاتبها ، وقال لها : لقد فضحتني بذكرك . فغضبت وقالت : يا هذا أني والله ما تزوجتك رغبة فيك ولا فيما عندك . ولقد علمت أني كنت زوجته قبلك، وأنه أكره على طلاقي . ووالله ما قبلت التزويج حتى أهدر دمه إن ألم بحينا . فخشيت أن يحمله ما يجد على المخاطرة فيقتل ، فتزوجتك . وأمرك الآن إليك ، ففارقني فلا حاجة بي إليك . فأمسك عن جوابها ، وجعل يأتيها بجواري المدينة ، يغنينها بشعر قيس كيما يستصلحها بذلك . فلا تزداد إلا تمادياً وبعداً ، ولا تزال تبكي كلما سمعت شيئاً من ذلك أحر بكاء وأشجاه

ومن جيد شعر قيس قوله :

أتبكي على لبنى وأنت تركتها

وكنت كآتي حتفه وهو طائع

فيا قلب صبراً وأعترافاً بحبها

ويا حبها قع بالذي أنت واقع

وياقلب خبرني إذا شطت النوى

بلبنى وبانت عنك ما أنت صانع

أتصبر للبين المشت مع الجوى

أم أنت إمرؤ ناسي الحياة فجازع

كأن بلاد الله ما لـــم تكن بها

وإن كان فيها الناس وحشٌ بلاقع

أقضي نهـــاري بالحديث وبالمنى

ويجمعني والهـم بالليل جامــــع

نهاري نهــار الناس حتى إذا بدا

لي الليل ، هزتني إليك المضاجع

لقد رسخت في القلب منك مودة

كما رسخت في الراحتين الأصابع

قال الاغاني : وقد أختلف في آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على إفتراقهما . فمنهم من قال أنه مات قبلها ، وبلغها ذلك فماتت أسفاً عليه . ومنهم من قال ، بل ماتت قبله ، ومات بعدها آسفاً عليها . قال أبو عمرو المدني : ماتت لبنى ، فخرج قيس ومعه جماعة من أهله ، فوقف على قبرها فقال:

ماتت لبنى فموتهـا موتي

هل تنفعن حسرتي على الفوت

وسوف أبكي بكاء مكتئب

قضى حياة وجداً على مـــوت

ثم أكب على القبر يبكي حتى أغمي عليه . فرفعه أهله إلى منزله وهو لايعقل ، فلم يزل عليلاً لا يفيق ، ولا يجيب مكلماً ، ثلاثاً ، حتى

مات . فدفن إلى جنبها

وهكذا قضى قيس مضحياً بحبه لإمرأته لبره لوالديه ، مؤثراً قرابة الماضي على قرابة المستقبل . وكان هذا منه خطلاً عظيماً جديراً بأن يأسى له مدى حياته . فإن طبيعة العمران قد رُكبت على إيثار الزوجة على الأم ، وعلى أن يهجر الزوج بيت والديه ، لكي ينشيء بيتاً جديداً وينعم بهناء الزوجية ، الذي لا يعد له ولا يقاربه هناء العيش مع الوالدين

صبيحة وابن أبي عامر

في منتصف القرن الرابع الهجري ، كان الخليفة في قرطبة بالأندلس رجلاً من الأمويين يدعى الحكم ، وكان من رعاة العلوم والآداب ، مغرماً بالموسيقى والغناء . حدث أنه كان في أحد الأيام بمكتبه ، فسمع غناء أشجاه وأثر في نفسه . فسأل عن صاحب هذا الصوت ، فعرف أنه لفتاة تدعى صبيحة . فطلب حضورها وحظاها ، وكانت على شيء من الأدب والتفنن في الحديث ، فعلقها وشغف بها ، وصار لا يقضي وقته إلا معها. ورزق منها غلاماً في سنة ٣٥٢هـ ففرح به فرحاً شديداً ، حتى عقد زواجه عليها . وصارت هذه الجارية أميرة الأندلس وأم ولي العهد

وكان الحكم مسناً ، بينما كانت صبيحة فتاة لاتزال في مقتبل العمر. وكانت تدري من شئون الدولة مثل زوجها ، وتمتاز عليه بنشاطها . فكانت تتدخل في إدارة البلاد ، ويسمع لرأيها الخليفة . وحدث أنها أحتاجت إلى كاتب لكي تستعين به في إدارة ضياع القصر الخاصة ، وفي سائر مراسلاتها وحساباتها مع موظفي القصر

فابتغى لها زوجها كاتباً من أولئك الكتبة الذين كانوا يحوطون

القصر ، يكتبون العرائض للخليفة من المتظلمين من الرعية . ووقع الأختيار على فتى يدعى محمد بن أبي عامر ، كان له حانوت بجانب القصر ينشئ فيه قصص الشكاوى وعرائض التظلم للخليفة

وكان هذا الفتى شاباً وسيماً ذكياً نشيطاً ، وقد تردد الخليفة أولاً في قبوله عندما رأى شبابه . وأخيراً وكَّل مهمة الأختيار إلى زوجته فأختارته

وأبتدأ كاتباً عند الأميرة ، ثم لم تمض عليه مدة حتى صار وكيلاً لضياعها ، وأرتقى من ذلك أيضاً حتى ضمت إلى إدارته ضياع ولي العهد . وكان أبن أبي عامر يطمع في أكثر من ذلك ، فأخذ يستميل الأميرة إليه ، ويُرضي جميع من في القصر ، حتى أحبه الجميع ، وعينه الخليفة ناظراً لخزانة الدولة . ثم عينه أيضاً مديراً مطلقاً لادارة سك النقود . وهكذا صار أبن أبي عامر أكبر رجل يشار إليه في الأندلس بعد الخليفة

وكانت الأميرة في خلال ذلك تلحظه برعايتها ، ولا تذكره عند الخليفة إلا بما يسر ، حتى تفتح له قلبه وسبغ عليه نعمه

وحقيقة الامر أن هذا الرقي السريع الذي ناله أبن أبي عامر كان يرجع إلى حب الأميرة صبيحة له أكثر مما يعزى إلى نشاطه وبراعته

فقد أحبته الأميرة صبيحة . وكان يؤكد هذه الصفات في نظرها شيخوخة زوجها . وكان هو يطمعها في نفسه ، ويظهر لها الحب نفاقاً

ومكراً ، طمعاً في الصعود إلى أعلى المراتب التي كان يشتهيها . فكان إذا غاب عنها تواترت منه الهدايا . وكان مما أهداها نموذجاً لقصرها «الزهراء» مصنوعاً من فضة ، وقد نقشت جدرانه أبدع نقش . وقد حُملت هذه الهدية باحتفال كبير ، اصطف فيه الجمهور على جوانب الشوارع ، وهو يعجب برؤية هذه التحفة الغريبة

وأخذ الناس يتساءلون من أين يأتي ابن أبي عامر بكل هذه الأموال ، ينفقها في بذل الهدايا إلى الأميرة . ولما كان أميناً على خزانة الدولة ، لم يكن بد من الشك في أنه يختلس الأموال منها . فسعوا عند الخليفة حتى جعلوه يطلب من ابن أبي عامر أن يقدم حساب خزانة الدولة ، وأمر أن ينظر في مطابقة الحساب على ما فيها من الأموال

فكاد يسقط في يد ابن أبي عامر ، ويأفل نجمه في هذه الصدمة ، لأنه ينفق عن سعة من هذه الخزانة . ولم يكن مرتبه يكفي إنفاقه . ولكن التوفيق كان لايزال ملازمه ، إذ تذكر أحد أصدقائه المخلصين ابن خضير، فقصد إليه وناشده الصداقة أن ينجيه من هذه الورطة . فدفع إليه ابن خضير جميع ما ينقص خزانة الدولة ، وعُمل الحساب وطُوبق على الموجود من الأموال ، فظهرت للخليفة أمانته ، وأعاده إلى مركزه

وكان الخلفاء في مثل تلك الظروف يتوجسون من الشبان ، ورأى الذين كانوا يحبون ابن أبي عامر أن الخليفة يوشك أن يجفوه ويقصيه، فأوعزوا إليه أن يبرح قرطبة إلى أشبيلية ، ويسافر منها إلى مراكش،

حتى تصفو الحال بينه وبين الخليفة ، ثم يعود

فلما كانت سنة ٣٥٨ هـ سافر إلى أشبيـيـة ، ثم برحها إلى مراكش ، حيث بقي عاماً ، هدأت فيـه العاصفة التي أثارها عليـه أعداؤه في قرطبة، فعاد في سنة ٣٥٩ هـ ، والخليفة عنه راض ويقدره عارف . فقد رأى وقت غـيـابه مـبلغ الأرتبـاك الذي نال شؤون الدولة على أيدي من قاموا بعمله ، وهم لم يحصلوا على دربته وتجاربه

وبقي في مركزه إلى سنه ٣٦٥ هـ

* * *

مرض الخليفة وأشفى على الهلاك ، وكان أبنه هشام يبلغ من العمر ١١ عاماً. وكان للخليفة أخ يدعى المغيرة ، وكان عمره نحو ٢٧ عاماً. وكان هو أحق بالخلافة من هشام ، لأن تقاليد الشرع تشترط الخلافة للأرشد من الأسرة ، بخلاف الحال عند سائر الأمم ، حيث يرتقي العرش الأبن عن الأب ، كائناً ما كان عمره

وكان هذا الخاطر يجول برأس الحكم وهو في مرض الموت فيزعجه . فأفضى بسريرة نفسه إلى أبن أبي عامر . ولم يكن أسرع من أن يجمع أبن أبي عامر مجلساً من كبراء الدولة ووجوهها ، حملهم فيه على أن يقروا بولاية العهد لأبنه هشاماً دون المغيرة

وكان أبن أبي عامر يرمي إلى مطامعه الشخصية في ذلك ، لأنه كان يعرف أنه بعد وفاة الخليفة ، لاتجد الأميرة صبيحة من تعتمد عليه سواه

في إدارة الدولة ما دام الخليفة لم يبلغ سن الرشد . فإذا صار وصياً، أتسعت أمامه الفرص لكي يصير هو نفسه خليفة

ومات الخليفة في سنة ٣٦٦ هـ ، ولكي يخلو الجو لأبن أبي عامر ذهب في الحال إلى قصر المغيرة بثلة من الجنود ، وأقتحم عليه القصر وخنقه

وهنا بدأت أطماعه تظهر ، وصارت الأميرة صبيحة يتمزق قلبها غيظاً من هذا الرجل الذي رفعته من أحط المراتب إلى أعلاها ، وأئتمنته على مستقبل أبنها فأنقلب عليها يبغي إنكار أبنها وإزالته هو وأمه من الوجود !

ومما كان يفرج في صدرها ويسهدها ويروعها ، أن أبن أبي عامر لم يكن ماكراً ذكياً فحسب ، بل كان أيضاً شجاعاً محبوباً عند جميع أفراد الأمة . فقد كان يقود المسلمين بنفسه في حروبهم مع الأفرنج ، وينتصر بحسن تدبيره وإحكام مكايده عليهم ، حتى صار يسمونه المنصور . ونسي الناس أسمه القديم ، وصار لايعرف إلا بهذا الأسم

وأخذ المنصور في تدبير أمره لكي يصل إلى الخلافة ، فأخذ يرسل الأوامر وينفذ الرسائل ، موقعة بتوقيعه دون ذكر للخليفة أو الأميرة . وشعرت الأميرة صبيحة بأفاعيل هذا الولي القديم ، الذي قلبته المطامع فصار عدواً ، فأخذت تحاربه سراً . وكانت خزانة الدولة في القصر ، وبها نحو ستة ملايين دينار . فأخذت نحو ٨٠ ألف دينار ، وضعتها في جرار

ملوثة بالعسل كي تزيل عنها الشكوك والشبه ، وأنفذتها إلى المدالين لها في الأمصار والبلاد ، حتى يخرجوا على المنصور ، ويردوا السلطة إلى الخليفة

وعلم المنصور بذلك ، فأخذ عدداً كبيراً من أعيان الدولة ، وذهبوا جميعاً خفية إلى الخليفة القاصر ، وجعلوه يقر ويوقع على أنه عاجز عن حكم الدولة ، وأنه ليس له سيطرة أو سلطان ، وأنه يرضى بنقل الخزانة إلى خارج القصر . وخرج المنصور وقد حصل على هذه الوثيقة ، فحقق بذلك أطماعه القديمة، وصار حاكم البلاد الحقيقي، وذلك في سنة ٣٨٧ هـ وذاع خبر هذه الوثيقة ، ففرح الناس لأنهم كانوا يحبون المنصور . وكان أكثر ما يحببه إليهم شجاعته وفروسيته . فقد حارب الأفرنج ٥٢ مرة ، فاز عليهم فيها جميعاً ، وعاد منهم بالغنائم . ويحكى أنه سمع عن أمير أفرنجي حبس إمرأة مسلمة ، فحاربه وهزمه ، حتى أجبره على أن يركع أمامه مستغفراً عن حبسه هذه المرأة ، التي أخرجت من سجنها ، وعوضت عما نالها فيه من الأذى

وفي سنة ٣٩٢ خرج لكي يقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم في ولاية قشتالة . فأستبسل العصاة وصمدوا له حتى أشكل عليه الأمر ، ورأى من جيشه تثاقلاً ، فلم يكن منه إلا أن شهر سيفه ، وتقدم بنفسه إلى صفوف العدو ، وألتحم بها . فأبتعثت نجدته الحماسة في قلوب جنوده ، فهبوا إلى الهجوم وأنتصروا ، ولكنه جرح جراحات بليغة مات بعدها

بأيام

فبكى عليه الأندلسيون ، وعاشت صبيحة بعده ست سنوات ، إذ ماتت سنة ٣٩٨ هـ ، رأت أبنها خليفة مؤمراً بعد أن كان صورة لا قيمة له

ابن زيدون وولاده

عاشت دول الأسلام في الأندلس (إسبانيا) من سنة ٧١١ هـ إلى سنة ١٤٩٢ هـ . وكان الأندلسيون عرباً مسلمين من حيث اللغة والدين ، ولكنهم كانوا آريين من حيث الدم والعنصر ، ليس فيهم إلا القليل من الدم العربي .

وقد زكت الفنون والعلوم فيها حتى كان الأوربيون ينزحون إليها للتعلم في مدارسها . وظهر فيها عدد كبير من الفقهاء واللغويين والمؤرخين والشعراء والفلاسفة

ويبدو من إستقرار تاريخ الأندلسيين ، أن النساء لم يكُن يخضعن للحجاب تمام الخضوع ، كما كن يفعلن في الشرق . ولعل ذلك من أثر الجو البارد عليهن ، لأن الحجاب وليد الجو الحار . فقد ذكر المؤرخون أن النساء كن يقعدن في ميادين قرطبة وغيرها ، ويحترفن نسخ الكتب !

وكانت الأندلس دولة واحدة في عصر خلفائها الأمويين ، ثم تمزقت الدولة فصارت دويلات صغيرة ، على كل منها ملك أو أمير ، لايفتأ في شجار ونزاع مع جيرانه . وقد تتجزأ الدويلة عند موته إمارات صغيرة ،

يستبد على كل منها أمير ، ينعت نفسه بنعوت الملك والأمارة ، حتى قال أحد شعراء الأندلس يصف هذه الدويلات :

مما يزهدني في أرض أندلس

ألقـــاب معتضد فيها ومعتمد

أسماء مملكة في غير موضعها

كالقط يحكي إنتفاخاً صولة الأسد

ففى هذا الزمن نشأ رجل يدعى أبا الوليد أحمد .. بن زيدون . ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بأشبيليه سنة ٤٦٣ هـ . وقد أشتهر بحبه لإمرأة تدعى ولادة ، من نسل الخلفاء الأمويين . وكان كلاهما أديب ، فكانا يتراسلان ، ويؤلفان قصائد الغزل ، ويجتمعان سراً وعلانية

قال أبن نباتة عن أبن زيدون :« كان من أبناء الفقهاء المتعينين ، وأشتغل بالأدب ، وفحص عن نكته ، ونقب عن دقائقه ، إلى أن برع ، وبلغ من صناعتي النظم والنثر المبلغ الطائل . وأنقطع إلى أبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف المتغلبين بالأندلس ، فخف عليه وتمكن من دولته . وأشتهر ذكره وقدره ، وأعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس . فأعجب به القوم وتمنوا ميله إليهم ، لبراعته وحسن سيرته . وأتفق أن أبن جهور نقم منه أمراً فحبسه . وأستعطفه أبن زيدون برسائل عجيبة وقصائد بديعة ، فلم تنجح . فهرب ، وأتصل بعباد بن محمد صاحب أشبلية الملقب بالمعتضد ، فتلقاه بالقبول والأكرام ، وولاه وزارته،

وفوض إليه أمر مملكته . وكان حسن التسيير ، تام الفضل محبباً إلى الناس ، فصيح المنطق جداً»

وقال عن ولادة :« كانت بقرطبة إمرأة ظريفة من بنات خلفاء العرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل من بني عبد الملك بن مروان ، تسمى ولادة .. أبتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، وتغلب ملوك الطوائف .. ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب ، وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم . وكانت ذات خلق جميل، وأدب غض ، ونوادر عجيبة ، ونظم جيد »

وأتصل الحب بين أبن زيدون وولادة ، وكان كل منهما ينظم القصائد ويتغزل بصاحبه ، فمن ذلك ما قالته ولادة فيه :

ترقـــب إذا جن الظلام زيارتي

فإني رأيت الليل أكتم للســـر

وبي منك ما لو كان للبدر لم ينر

وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

وكانت كثيرة العبث والدعابة ، تضمن أشعارها اللطائف الحلوة .

ومن أقوالها عن نفسها ، وفيه جرأة عجيبة :

أنا والله أصــلح للمعـــالي

وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من لثم ثغري

وأعطي قبلتي من يشتهيها

ولانعرف ماهية الحب الذي كان بينها وبين من قيل أنهم أحبوها ، هل كان عشقاً صحيحاً أم كان حباً أفلاطونياً بريئاً ؟. ومن يقرأ سيرتها ، يرجح أنها لم تعشق أحداً . وقد يكون بعض محبيها قد عشقها وكلف بها ، ولكن ليس ما يدرينا هل نال وطره منها أم لا

فقد قال أبن نباتة : « وكان أبن زيدون كثير الشغف بها والميل إليها. أكثر غزل شعره فيها وفي أسمها . ثم أن الوزير أبا عامر بن عبدوس أيضاً هام بها ، وكلف بعشرتها ، وكان قصدهم الظرف والأدب »

ومما يؤكد هذا الظن قول أبن زيدون :

وغــــرك من عهد ولادة

سراب تراءى وبرق ومض

هي الماء يأبى على قابض

ويمنـــع زبدته من مخض

ولما هجرت ولادة أبن زيدون ، وواصلت أبن عبدوس ولزمته ، قال أبن زيدون يتشفى وينتقم منهما :

عيرتمونا بأن قد صــــار يخلفنا

فيمن نحب وما في ذاك من عار

كل شهي أصابنــــا من أطايبه

بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفــار

و « الفار» هو لقب أبن عبدوس

ومما يحكى عن ولادة أنها مرت يوماً بدار أبن عبدوس وهو جالس بالباب وحوله جماعته من أصحابه ، وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأقذار ، فوقفت عليه وقالت :

أنت الخصيب وهـذه مصـر

فتدفقـا فكلاكما بحـر

فلم يحر جواباً ، فمضت.وحُفظت هذه النادرة وأشتغل بها الناس . وهذا البيت لأبي نواس ، قاله عندما جاء مصر يمدح واليها فتمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

ودامت على ولاء أبن زيدون أكثر مدة إقامته بقرطبة . فلما فر إلى أشبيلية ، تودد إليها أبن عبدوس ، فأتصل بينهما وداد ربما قد بلغ درجة الحب . وكان أبن عبدوس قبل فرار أبن زيدون يسعى في إستمالتها إليه ، فلم يكن يقدر على ذلك . وبلغ خبر سعيه هذا مسامع أبن زيدون، فألف رسالة إليه على لسان ولادة ، قرعه فيها وتهكم به ، حتى صار يحفظها الناس لبلاغتها وقوة لذعها . وهي مشهورة تعرف بأسم : «رسالة أبن زيدون» وهي مطبوعة في كتاب على حدة ، مشروحة بقلم أبن نباتة المصري

ولأبن زيدون قصيدة عصماء شهيرة نظمها في ولادة ، يتشوق إليها بعد فراره إلى أشبيلية ، ويذكر لها ما يعانيه من فراقها ويأسه من لقائها، ويستديم عهدها . وقال فيها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

ونـــاب عن طيب لقيانا تجافينـا

بنتم وبنـــا فمـــا أبتلت جوانحنا

شـــــوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

يكـــــاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضي علينا الأسى لولا تآسينا

حـــــالت لبينكم أيامنا فغدت

سـوداً كانت بكم بيضـاً ليالينـا .

إذ جانب العيش طلق من تألفنا

ومورد اللهو صـاف من تصافينـا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانية

قطـوفاً فجنينا منه ماشـــــينا

ليسق عهدكم عهد السرور فمـا

كنتـــــم لأرواحنا إلا رياحينـا

أبيــــلار وهيــلوئيـز

لم يُكتب في فرنسا عن عاشقين أكثر مما كتب عن أبيلار وهيلوئيز ، فقد ذُكرت قصتهما بجملة صيغ مختصرة ومسهبة ، حالية بصنوف الحواشي وعارية منها . ولا يقرأ قصتيهما محب عاشق إلا ويتعزى بسيرتهما ، وما قاساه كل منهما من الآلام في سبيل الآخر . ولا يزال قبر أبيلار يزار في باريس في كل عام ، ينثر عليه المحبون أكاليل الزهور، ويترحمون عليه ، ويذكرون بلاء حبيبته وإخلاصها ، وفداحة الآلام والتّعس والأضطهاد التي كابدها حبيبها

ومن العبر التي يمكن القارىء أن يستخرجها من قصة هذين الحبيبين ، أن الحب مهما أرتفع ورق ، لاتزال جذوره سارية في حضيض . فإذا أقتلعت الجذور ، فسرعان ما تندك فوقها دوحة الحب ، وقد جف ورقها وماتت أغصانها

ولد أبيلار في غرب فرنسا في سنة ١٠٧٩ ، وكان أبوه من الأشراف، ولكنه نزل عن حقوقه في ميراث الشرف لإخوته ، وعزم على أن يقضي أيامه في خدمة العلم . وشخص إلى باريس ، حيث قضى مدة قصيرة في

طلب العلم ، صار بعدها أستاذاً يجذب إليه بفصاحته وحسن بيانه جمهور الطلبة الباريسيين

وكان ذلك العصر أظلم عصور القرون المتوسطة . فكان التعليم في يد الكهنة جامداً لا يلين أمام الفكر ، يعتمد على النقل . ويدور ويحور حول الدين . ولم يكن في الدين في ذلك الوقت فسحة للحرية الفكرية . وكان النظام الإفداني (الإقطاعي) منتشراً ، ليس للأقطار سلطة مركزية ينفذ كلامها وترعى أوامرها . بل كان الأشراف يحكمون كل متهم في إقليمه . يبني حصنه ، وتنشأ المدينة أو القرية حوله ، يحتمون به عندما تهيج الحرب ويغزو الشريف شريف آخر مجاور له . ولم تكن المسيحية أو القوانين المدنية قد هَذبت بعد من أخلاق السكان ، فقد كان لايزال الدم الألماني يغلي فيهم ، يطلب الغزو والنهب . فكانت الثارات لا تنقطع ، والهمجية فاشية ، وكانت باريس إذا جنها الليل عاشت في شوارعها الذئاب . والخلاصة أن أوربا كانت في حال الفوضى الأدبية والأجتماعية والسياسية

وكان أبيلار يدعو في تعاليمه إلى إخضاع التقاليد للعقل ، فهاج عليه لذلك زعماء القديم وأضطهدوه ، حتى أضطر إلى الهجرة من باريس، وأخذ يضرب في آفاق فرنسا ويعلم كلما وجد أرضاً خصبة لبذوره

وكان أبيلار عند عودته إلى باريس في الخامسة والثلاثين من عمره ،

شريف الطلعة ، نشيط الجسم والذهن . وكان يؤلف الشعر ويلحنه على الأنغام الموسيقية . وفي هذا الوقت ، عرف فتاة في الثامنة عشرة تدعى هيلوئيز . وكانت قد حملت بها أمها سفاحاً من أحد الأشراف ، وقد عنيت بتربيتها وتخريجها على أيدي مهرة المعلمين ، فكانت تعرف عدة لغات ، وتعشق الشعر والموسيقى مثل أبيلار . وكان يراها من وقت لآخر، ويختلس النظرات منها في رواحها إلى بيت عمها وغدوها منه ، حتى علقها ، وهام بها ، وصار حب العلم الذي كان قد تملكه إلى هذا الوقت شيئاً بارداً ميتاً بجانب حرقة هذا الحب الجديد

وأحتال على عمها لكي يصل إليها ، حتى عينه معلماً لها ، يوليها بالدروس ويشرف على تعليمها . فصار يزورها كل يوم ، ويتدرج معها من الدروس الجافة من العبرانية والأغريقية ، إلى السير والتاريخ ، يحكي لها تجاربه الماضية ، وما قيل من الأشعار ، وما جد في الموسيقى. ويخرج من ذلك إلى ما يمس إحساسها من عواطفه ، حتى بلغ قلبها ، فرأى فيه مثل ماعنده . فكانا يقعدان إلى المائدة ، وأمام كل منهما كتاب مفتوح يتعللان به ، وكلاهما مشغول بصاحبه ، حتى إذا تلاقى النظران شاع الخجل في كل منهما ، فيعودان إلى الكتاب ، وقد راعهما الأرتباك والحياء . ثم تمس اليد   اليد وكأن ذلك قد حدث سهواً، فتحصل الرجفة ، تؤذن ببزوغ الحب ، أو تخرج الزفرات من صدريهما على غير وعي منهما فيعرف منها   أبيلار كيف سرى في جسمها تيار

ولم يمض عليهما طويل زمن حتى تصارحا بالحب ، وأسلمت هيلوئيز نفسها إليه . وكثرت ملازمة أبيلار لها حتى لحظ الناس ذلك ، وأخذوا يتقولون . وحدث أن ألف أبيلار مقطوعة غرامية عنها ، فوقعت في أيدي أعدائها ، الذين بادروا إلى عمها بها . فهاج هائج عمها ، الذي لم يكن قد دخله أي شك قبلاً فيهما ، وأمر بطرده من البيت ، ومنع هيلوئيز من لقائه

ولكن طرق المحبين كثيرة . فقد أخذت هيلوئيز تخرج سراً إلى بيت تقطنه أخت أبيلار ، فيلتقيان هناك . ولم تمض مدة حتى وضعت هيلوئيز ولداً ذكراً سمته ، أو بالأحرى سماه أبوه ، إسطرلاب . وهذه اللفظة أسم آلة كان يستعملها قدماء الفلكيين

وعرف عمها خبر هذا الولد ، فأراد أن ينتقم من هذا الرجل الذي أئتمنه على بنت أخيه فخانها في عرضها ، وفضح البيت فضيحة أبدية . وأخيراً وجد أن أسلم الأعمال عاقبة أن يقترنا ، فطلب إليهما ذلك . وكان أبيلار يرغب في أن يعيش عزباً لأنه كان ينوي أن يسلك في سلك الكهانة ، فرضي بالزواج ، ولكنه أشترط أن يكون سراً لا يذاع . ولكن هيلوئيز أبت أن تكون زوجته ، خشية أن يذاع خبر هذا الزواج ، فلا يرتقي أبيلار في الكنيسة . وجعلت تعارض عمها وحبيبها . ومما يؤثر عنها قولها : « إني أفضل أن أكون خليلتك عن أن أكون زوجة

إمبراطور»

ولكنها بعد أن بذلت كرامتها وعرضها فداء حبيبها ، رضيت بعد الإلحاح أن تتزوج منه . وتم الزواج سراً ، وعاد أبيلار إلى محاضراته العلمية . وعاد الناس إلى التقول والتخرص ، فكانوا كلما ألتقوا بعمها عيروه وثلبوه . فساء هذا عمها ، حتى باح بالسر ، وأعلن أنهما متزوجان . فذهبوا يسألون هيلوئيز ، فقالت :« لست زوجته ، وما أقترن بي قط . وإنما يقول عمي ذلك ضناً بسمعته »

فتحدوها إلى اليمين ، وأحضروا لها الأنجيل ، فلم تتأخر عن القسم بأنه ليس بينها وبين أبيلار زواج ما . وبلغ ذلك عمها ، فأخذ يحرق الأرم غيظاً وحنقاً ، وعاد فمنع الحبيبين من اللقاء . ففرت إلى دير قريب فكان أبيلار يلقاها هناك ، وكل منهما يبث الآخر سريرة نفسه

وهنا ينبغي أن نتريث قليلاً للمفاضلة بين الأثنين . فليس شك في أن هيلوئيز بذلت من نفسها أكثر مما بذل أبيلار . فقد سلمت نفسها إليه قبل الزواج ، ثم رفضت أن تتزوج به عندما وجدت أن زواجه يؤخر إرتقاءه في المناصب العليا ، ثم أنكرت زواجها ورضيت أن يقال عنها أنها خليلة

كل ذلك فعلته هذه الفتاة النبيلة ، مضحية بعرضها وكرامتها وسمعتها لأجل حبيبها . وأما هو ، فقد أصر أن يكون الزواج سراً مكتوماً . حتى لايمنعه هذا عن الأرتقاء إلى المناصب العليا . فلم يكن

الحب في نظره يساوي الرفعة والشهرة بالتفوق على الأقران

وعرف العم أن أبيلار يلقاها في الدير ، وأنه مصرّ على إخفاء أمر الزواج ، فأراد أن ينتقم إنتقاماً سافلاً تجبن دونه الأبالسة . فأكترى جملة رجال طغام ، ذهبوا إلى غرفته وهو نائم في جوف الليل ، ورشوا خادمه ففتح لهم . وكانوا أربعة ، قبض ثلاثة منهم على أبيلار وأوثقوه ، وأخرج الرابع موسى جبهه بها . ثم تركوه غارقاً في دمه ، وهو يملأ الفضاء بصراخه وبكائه

وشاع خبر هذه الجناية السافلة في باريس . فما جاء الصباح ، حتى هرع الناس إلى البيت . وكانت النساء يبكين كأنهن فقدن أزواجهن . ولكن أبيلار ، وإن فقد ذكورته ، فإنه لم يفقد رجولته . فما كاد أن يلتئم جرحه ، حتى أستأجر هو الآخر بعضاً من السفلة ، تعقبوا الخادم وأحد الجانين فجبوهما . وقدمت القضية لمحكمة كنسية فعاقبت عم الفتاة بأن أستصفت جميع أملاكه

أما هيلوئيز ، فقد كانت نكبتها تجل عن الوصف . فإن حبيبها لما فقد ذكورته ، فقد أيضاً حبه أو بالأحرى شهوته . فلما ألتقت به حبيبته، طلب إليها أن تترك الدنيا وتدخل إلى أحد الأديار . وصرح لها بأنه لايثق بأمانتها . فكان هذا التصريح أقصى ما صدمت به الفتاة في حياتها . وقد قالت بعد ذلك في خطاب إليه : « يعلم الله أني ماكنت أتردد أن أسبقك أو ألحقك إلى الدير». ودخل هو ديراً آخر ، وصار راهباً

وأكب أبيلار من ذلك الوقت على خدمة العلم، دون أن يشغله شاغل الحب السابق . فجعل يكتب ويعلم ، وفي كل ذلك يفضل سلطان العقل على سلطان الدين . ولكن الزمن لم يكن يؤاتيه على هذه الجرأة . وأنعقد مجلس لمحاكمته ، أنتهى بأن أمر بإحراق كتبه . وهب الرهبان الذين كانوا معه في الدير ، وكان هو رئيسهم ، إلى الثورة ، حتى طردوه

وخرج أبيلار من الدير وهو كسير الخاطر مقهور النفس، فبنى لنفسه خصاً من القصب والطين في سهل منفرد . ولكن تلاميذه سمعوا به ، وسرعان ما رحلوا إليه ، وبنوا حوله خصاصاً . وصاروا يتحلقون حوله كل يوم ، يتلقون منه دروسه وآراءه في العلم والدين . وبنى بعد ذلك بناء من الخشب والحجر سماه « الفار قليط » لاتزال رسومه وبعض أطلاله باقية للآن

وبعد مدة أصدر أبيلار كتاباً دعاه : « تاريخ ما نزل بي من المصائب»

فلما أطلعت عليه هيلوئيز ، أرسلت إليه خطابات متواترة تبثه حبها وولاءها ، كأنها في أول سني حبها . وهذه الخطابات من أجمل وأروع ما كتبها عاشق . فقد أرسلت إليه تسأله أن يدلها على الطريق إلى الله ، كما دلها قبلاً على طريق اللذة والحب . فأجابها إجابة القسيس للراهبة ، ويكفي أن نذكر السطر الاول من خطابه لندل إليه :

« من أبيلار الأخ في المسيح إلى هليوئيز الأخت في المسيح »

وقد وجدت هيلوئيز من جفاء عبارته ما أثار في نفسها الغضب ، وأشعرها أن حبيبها القديم قد نسيها . فكتبت إليه تقول :

« حبيبي . كيف أستطعت أن تعبر عن هذه الأفكار ، وكيف أهتديت إلى ألفاظ تؤديها ؟. ليتني أجرؤ على أن أقول أن الله يقسو عليّ !. إلا إني أشهد أني أتعس مخلوق . لقد كانت أيام حبنا لذيذة حلوة ، حتى لا أقدر الآن أن أرد ذكراها عني . فأينما ذهبت تتخيل لي هذه الذكرى ، وتشعل فيّ الرغبة القديمة »

ولكن أبيلار كان يحس في نفسه موت العاطفة الجنسية ، فكان يكتب إليها بلهجة المتباعد المتعفف المتزهد ، فيأخذ في شرح الرهبانية واللاهوت والآداب وما إليها من الأشياء ، التي لا تلبي نداء العاطفة التي كانت تختلج في صدر هيلوئيز . فكانت تحتج وتثور على هذا الجفاء بلا جدوى . وأخيراً أدركت ما ألم بصاحبها ، فهدأت ثائرتها ، وأطمأنت إلى حالها ونكبتها

وحكم على أبيلار بعقوبة كنسية لأقوال أخذت عليه . فسافر إلى رومية لكي يقضي حدها ، فمات في الطريق . وحُملت جثته إلى « الفار قليط » . وعاشت هيلوئيز بعده ٢٢ سنة ، ترعى قبره وتحفظ عهده ، ثم ماتت . فدفنت إلى جانبه ، وأختلطت عظامها بعظامه كما كانت تهوى ، ونقلت رفاتهما إلى باريس حيث هما الآن

شارل الثاني ملك أنجلترا

كانت أمه فرنسية ، ونشأ هو يجيد اللغة الفرنسية ، فلم تشق عليه المعيشة في ذلك الوطن الثاني . وكان لويس الرابع عشر متبوئاً في ذلك الوقت عرش فرنسا ، وكان يعرف أن الأمة الأنجليزية متى ذهبت عنها ذكرى هذه الخصومة بينها وبين ملكها ، لابد عائدة إلى الملوكية ، وستطلب ملكها الشرعي وتبوئه عرش آبائه . فرتب لذلك معاشاً سنوياً لهذا المليك الطريد ، وأسكنه في قصره ، وحاطه بحاشية ، بحيث لم يكن شارل يشعر بأنه منفي غريب عن بلاده

وأجتهد شارل في أن ينجو أبوه في أنجلترا من القتل ، وصار يكاتب أعضاء البرلمان في ذلك . بل بلغ من شدة رغبته في تخليص أبيه أن أرسل إليهم ورقة بيضاء موقعة بأسمه ، طلب إليهم فيها أن يضعوا جميع شروطهم ويتنزلوا عن قتل الملك

فلما أخفق في ذلك ، هيأ أسطولاً به ١٨ بارجة ، وصار يغزو به الشواطيء الأنجليزية . ثم ذهب إلى أسكوتلاندة ، وتتوج فيها ملكاً في سنة ١٦٥١ . وأنحدر إلى أنجلترا ، ولكن كرومويل كان في أوج قوته،

فتلقاه وصمد له وهزمه . ففر ناجياً بنفسه إلى فرنسا . وعرف شارل من ذلك الوقت أنه يجب عليه أن ينتظر حتى يموت كروموبل ، ويعود عندئذ إلى عرشه

وكانت ملكة البرتغال إمرأة حصيفة ، بصيرة بالسياسة الأوربية . وكانت بلادها في ذلك الوقت في الصف الأول بين الدول الكبرى . وكانت تعرف ، مثل لويس الرابع عشر ، أن شارل سيعود إلى عرشه ، وتصير لكلمته تلك المكانة العظيمة في المفاوضات السياسية . وكانت البرتغال تسعى في الأهتداء إلى حليف يعينها على جارتها إسبانيا . فعزمت على أن تزوج أبنتها لشارل ، وتغريه في الوقت نفسه بمليون جنيه

وكانت أبنتها قليلة الجسم سوداء الشعر ، وقد تربت تربية الأديار . فكانت فتاة ساذجة متدينة ، لاتعرف سوى العبادة وأعمال البيت . ولكن شارل كان يقدر المليون جنيه حق قدرها في ذلك الوقت ، فلم يرفض هذا الزواج

وكان الأنجليز قد ضجروا من حكم كرومويل ، الذي أبطرته القوة قطعا . وأرتكب هو نفسه الجناية التي قتل من أجلها شارل الأول ، إذ طرد أعضاء البرلمان وأستبد بالحكم . فلما مات ، تنفس الناس الصعداء، وطلبوا شارل . فدخل إلى لندن بين الموسيقى والطبول ، تخفق فوقه الرايات . وكان فرح الناس عظيماً ، حتى يقال أنه مات كثيرون

لشدة ما أثر فيهم الطرب بعد أن ثابت الملوكية إلى عرشها

وأنعقد البرلمان ، وقرر أعتماد مبلغ سبعين ألف جنيه لإقامة تمثال للملك المقتول شارل الأول . ولكن شارل الثاني لم يكن حريصاً على ذكرى والده ، فأخذ المبلغ وأنفقه في ملذاته الشخصية

وكان شارل شهواني المزاج ، لا يفتأ يبحث عن إمرأة جديدة مكان أخرى مملولة . وكان له جملة عشيقات قد تقسمن حبه . وعرف فيه لويس الرابع عشر ملك فرنسا هذه الخصلة ، فأرسل إليه إمرأة جميلة تتعشقه ، وتكون في الوقت نفسه عيناً عليه . وكانت تدعى لويز دو كيرواي . وقد رزقت منه بولد صار فيما بعد دوق لوتوكس

وكانت زوجته كاترين ، تلك الفتاة البرتغالية الساذجة ، ترى هؤلاء النساء حوله ، وتسمع ما كان يقال من أنهن قد رزقن منه أولاداً ، فتتحرق غيظاً ، وتعاتب زوجها . فيردها خائبة ، ويقول لها أن الملكة يجب أن تسكت على أشياء ، قد لاتسكت عليها الزوجة العادية . وكانت كاترين في تواضع وتدين وسذاجة ، بحيث كانت تجتذب إليها قلب الملك أحياناً ، حتى لقد دافع عنها ووقف إلى جانبها عندما أخذ الرعاع من الأنجليز البروتستانت يتصايحون عن طرد هذه الفتاة الكاثوليكية

وإلى هنا كان حب شارل الثاني من النوع الشهواني ، لم يثبت على ولاء واحدة من النساء اللاتي عرفهن . وليس شك في أنه كان يحب

زوجته . ولكن حبه لها كان عطفاً وحناناً ، أشبه بما عند الوالد لولده ، منه بما عند المحب لحبيبته

وفي إحدى الليالي ، خرج متنكراً وذهب إلى أحد التياترات . فرأى فتاة جميلة . فأخذ في التحدث إليها . وبينما هما في ذلك ، إذا بصاحب الفتاة وهو رجل غني قد أقبل . فخرج الجميع إلى مطعم قريب ، وتناولوا بعض الطعام ، وشربوا بعض القداح من الجعة . وأراد الملك أن يدفع ثمن الطعام والشراب ، فلم يجد في جيبه شيئاً . وأخذت الفتاة تضحك من إفلاسه وإملاقه وتطفله على الناس لكي يسكروه ويطعموه

وكانت هذه الفتاة تدعى نل جوين ، عاشت طوال حياتها وهي لاتعرف لها أباً أو أماً . نشأت على الدعارة ، تكري نفسها لمن شاء . لم تعرف قط معنى الطهارة . فقد كان يعيش في أيامها عصابات من الأشرار ، يختطفون الفتيات ويؤجرونهن ، وكانت هي إحدى هؤلاء البائسات . فكانت تنتقل من صاحب يملها إلى آخر يستظرفها ، ثم يملها ، وهكذا

فلما كان اليوم الثاني من لقائها بالملك ، إستدعيت إلى القصر ، وباح لها شارل بحبه . فعاشت من ذلك الوقت في كنفه ، وأخلصت له الحب إخلاصاً لم يجد ما يماثله فيمن عرفهن . فقد كان همّ كل إمرأة عرفها أن تثري ، وتثقل نفسها بالجواهر ، وتقتني القصور ، عدا هذه الفتاة . فإنها على الرغم من أنها عاشت طول حياتها بين الفجرة من

اللصوص والغواة ، كانت لاتزال نفسها سليمة ساذجة ، فلم تتطلع إلى إقتناء الأموال من الملك ، بل كانت لا تهتم إلا بمصلحته

ويحكى أن شارل جلس يوماً ، وأخذ يتضجر من أن الناس غير راضين عن حكمه . فقالت له نل جوين على الفور : « أطرد نساءك ، وأنظر في الواجبات التي تجب على الملك وهم يحبونك »

ومما يؤثر عنها أنها كانت السبب في إنشاء مستشفى كلزي ، فقد رأت أن الجنود الذين قتلوا في سبيل شارل الثاني وأبيه المقتول شارل الأول ، قد أسنوا وعجزوا عن كسب معاشهم ، فأسست لهم هذا المستشفى يأوون إليه

وربما كان أكبر شاهد على فضل هذه المرأة التي فقدت طهارتها الجسمية ولكنها لم تفقد طهارتها الروحية ، أنها عند وفاة شارل لم تكن تملك شيئاً . حتى يقال أن الملك وهو يحتضر ، والناس حوله وقوف، أخذ يعتذر إليهم لأنه أتعبهم لطول ما يقضي من الوقت في الأحتضار . ثم صاح وهو في السكرات الأخيرة :

« أرجو ألا تدعوا نل المسكينة تموت جوعاً »

ماري ملكة أسكوتلاندة

بين كليوبطرة وماري شبه عظيم من جملة وجوه . كلتاهما كانت ملكة، وكانت الفتنة في جمال كل منهما ناشئة عن الشخصية لا عن قسامة الوجه ووسامة الأعضاء . فكان أول ما يراهما إنسان ، لايجد فيهما شيئاً من الجمال . فإذا ما أخذتا في الحديث ، رأى من الخفة والرشاقة ما يجذبه إليهما ، ويجعله يعترف بفتنتهما . وتتشابهان أيضاً من حيث أن كلاً منهما لقيت حتفها عن سبيل الحب . وقد كانت حياتهما موضوع الشعراء والقصصيين والدراميين

كانت ماري أبنة ملك أسكوتلاندة چيمس الخامس ، وكانت أمها من تيبلات اللورين الواقعة بين فرنسا وألمانيا ، إمرأة ضخمة طوالاً ، يزيد إرتفاعها عن ست أقدام . وكان ملك أنجلترا يحاول أن ينال يدها ، ويبعث إليها بالسفراء لكي تقبل الزواج به . وكان يقول : « أنا رجل ضخم ، أحب أن أتزوج إمرأة ضخمة مثلي »

ولكن ملك أسكوتلاندة كان أذكى منه وأركن فطرة ، فقد عرف أن العامل الشخصي في الزواج هو أهم العوامل . ولذلك عمد إلى إجتذابها

بنفسه ، ورحل إليها ، وأخذ في تعشقها حتى رضيته زوجاً وتزوجته .
وجاءت إبنتهما ماري مديدة القامة بيضاء ، تكاد تكون شاحبة ، حتى كان يقال عندما شبت وأزوجت ، أنها كانت عندما تشرب النبيذ يتراءى للناظر بلونه الأشهب خلال عنقها الصافي البشرة . ومات أبوها في السنة الأولى من عمرها ، فصارت بذلك ملكة أسكوتلاندة . وكانت فرنسا في ذلك الوقت بلاد الحضارة ، يرسل أشراف ألمانيا وأنجلترا أبناءهم إليها للتعلم فيها ، والتأديب بآداب باريس ، والحذق في معرفة عوائد الأشراف والطبقات الراقية . فما كادت ماري تشب حتى أُرسلت إلى ملك فرنسا . وكان حاكم فرنسا الحقيقي زوجته الأيطالية كاترين دومديشي . وكان البلاط الفرنسي في ذلك الوقت شبكة عاتية من الدسائس السياسية ومسارقات الغرام ، والتأنق في إشباع الشهوات الجنسية . ونشأت ماري في هذا الوسط ، فاصطبغت أخلاقها به ، وعرفت منه شجرة الخير والشر

وكانت ذكية الطبع ، فلم يمض عليها وقت طويل حتى حذقت الفرنسية والأيطالية واللاتينية . وتدربت على الفروسية ، وتعلمت الرسم والنظم . ثم حدث لها ما عجل في إذكاء قريحتها ، فقد صارت زوجة لولي عهد فرنسا ولما تبلغ السابعة عشرة . ولم يكن زواجها به عن حب ، وإنما روعيت فيه المصلحة . فقد كانت هي ملكة أسكوتلاندة ، وكان هو ملك فرنسا . وكانت اليصابات ملكة أنجلترا عانساً لم تتزوج ، فكان

عـرش أنجلتـرا لابد مـقـضـيـاً عليـه بأن يؤول إلى السـلالة الحاكـمـة في أسكوتلاندة للصلة القديمة بين ملوك أنجلترا وأسكوتلاندة . فكانت النية من هذا الزواج أن تُجـمع الأقطار الثلاثة في مملكة واحدة يحكمـهـا هذان الزوجان

كـانت مـاري عند زواجـهـا في السـادسـة عـشـرة ، وكـان زوجـهـا في الخامسة عشرة . ولم يكن بينهما حب ، بل كانت تحتقر زوجها ، ولا تبالي أن تُظهر ذلك . فقد كان عليلاً يقضي ليله في التأوه . وكان في أذنه خراج ، يقض مضاجعه . ولم يكمل عامـه الأول حتى مات . ولم تكن علاقتها مدة حياة زوجها بحماتها حسنة ، فقد كانت كلتاهما تبغي الأستئثار بالحكم في فرنسا . وكانت ماري تعيرها بأنها « أبنة صيدلي»

فلما مات زوجها زالت سلطتها عن فرنسا ، وعزمت على أن ترحل إلى أسكوتلاندة ، حيث عـرشـهـا الشرعي الذي ورثتـه عن أبيهـا . وكان يستغرق لبها الآن عاطفتان قويتان، إحداهما الطموح إلى القوة والسيادة، يحكم هذا الدم الذي ورثتـه عن سلالة ممتدة من الملوك . والأخرى عاطفة الحب التي هاجها الوسط ، وأثارها الزواج ، دون أن تجد فيه ما يرضيها. وحُكى أنه عندما بلغت الثـامنة عـشـرة ، أهتـاجت عـواطفـهـا إهتـيـاجاً عظيماً، فكانت تخفف شدتها بتقبيل الأطفال ومعانقة الفتيات ، وتأذن للشعراء في إنشادها وصف محاسنها وتقبيل يديها

وكانت كاثوليكية المذهب ، في حين أن رعاياها الأسكوتلانديين كانوا

من غلاة البروتستانتية . فلما نزلت أرض بلادها أستقبلها الناس بفتور، وبخاصة لأنها كانت محوطة بحاشية من الأجانب الذين كانوا يخدمونها وهي في فرنسا . وكان رعاياها يخشون منها ، ويتوجسون خيفة أن تغير المذهب الرسمي الذي أختارته البلاد

وكانت عقب وفاة زوجها قد عرفت أحد نبلاء بلادها اللورد بوثول . وكان أكبر منها قليلاً في السن . زارها وهي في فرنسا ، فشعرت لأول رؤيته بتلك الهزة التي تختلج الجسم ، وتنبيء بإنبثاق الحب الصحيح بين طبيعتين مؤتلفتين . وقد وصف الأديب المعروف موريس هيولت هذا اللورد بقوله :

« كان رجلاً مفراحاً يتوهج بالدم ، عريض الكتفين مربع الفكين ، وكانت ضحكته عاجلة عالية ، يحسب من يسمعها أنه لن يكون غم حيث تكون هذه الضحكة . وكان يتفتى في اللباس والمركب ومصاحبة الأخوان . له على الدوام سيماء الشجعان . وكان لون وجهه يدل على حبه الطعام ، ولكنه كان يدل أيضاً على وفور العافية والقوة .. وكانت أرنبة أنفه قد هشمت ، ولكن قل من كان يلحظ ذلك ، أو يفكر في العربدة التي أدت إلى هذا الهشم . وكانت صراحته وعدم إكتراثه لشيء، من أكبر أسباب فتنته »

وكان إلى شجاعته وفتوته وحبه النساء ، وتسرعه إلى تجريد سيفه عند الغضب ، يعشق الآداب . يقرأ الأيطالية والفرنسية ، ويكتب

اللاتينية ، ويقتني الكتب . فكان شخصه لذلك جماع ما تطلبه ملكة متوثبة العواطف من عشيقها . ولذلك أقبلت عليه ماري ومحضته حبها فلازمها ، وصار أحد بطانتها

وكانت كراهية الأسكوتلانديين حافزاً على أن تسير سيرة العدل معهم. فلم تمض سنوات ، حتى عرف لها رعاياها عدلها فأحبوها . وكان چون نوكس نفسه ، وهو من غلاة الشيعة البروتستانتية ، يضطر إلى الإشارة إليها باللطف والأدب

وأرادت ماري أن تبالغ في إجتذاب عطف رعيتها عليها ، فتزوجت من أبن عمها البروتستانتي اللورد دارنلي . وأعتزمت من ذلك الوقت أن تصرم حبل صلتها السابقة باللورد بوثول ، حتى طلبت إليه أن يتزوج . وأطاع اللورد بوثول نصيحتها ، وتزوج بالفعل

ولكن ماري كانت مخطئة ، لم تصدق الحدس عن دخيلة قلبها ، ولم تبحث البحث الكافي لمعرفة حقيقة خلق زوجها وأبن عمها اللورد دارنلي. فقد دخل عليها في أولى ليالي زواجها وهو سكران لايعي . وكان خلواً من العقل ، قد حشى رأسه بالغرور وقلبه بالأنانية . وكان يعتقد أن الملكة قد ترامت عليه لكي تتزوجه إفتتاناً به . فكان يتيه عليها ويبرمها

وحدث أن خرج عليها بعض لورداتها عقب زواجها . فجندت بضعة من الرعاع ، وقامت على رأسهم ، وسارت نحو هؤلاء الخارجين

فأخضعتهم ، ومزقت شملهم ، وعادت متصورة إلى عاصمة البلاد . فعلت ذلك كله دون أن يشاركها زوجها النى أحطم جبناً ونذالة

فأستوثق لها الملك بعض الأستيثاق بهذا النصر ، حتى تراخت له ، وعادت إلى سيرتها الأولى في العشق . فأستدعت اللورد بوثول ، وأخذت معه في إرتشاف كؤوس الغرام . وصارت لاتبالي بما يتقول الناس عنها ، حتى بلغ بها تحدي العرف وآعادة أن صارت تلبس ملابس الرجال . وبلغ سوء الظن بها من أحد شعرائها الفرنسيين ، أن أعتقد لكثرة ما رأى إستهتارها ومزاحها معه ، انها تحبه وتؤثره على سواه . فأنسرق مرة إلى سريرها ونام تحته ، فلما عرفت فعلته ، أُخْرِج بالجر والعنف .ثم حدث مرة أخرى أن دخل إلى فراشها ، ونام تحت لحافها ، فأُخْرِج أيضاً وحكم عليه بالموت . فلما وقف على النطع لم يزد على أن قال :

« ويحك أيتها الملكة القاسية . ها أنا ذا أموت لأجلك »

وكان عندها شاعر إيطالي آخر كان ينظم لها المديح ومقطعات الغزل، لتجيبه بمثلها . وأغلب الظن أنه لم يكن بينهما سوى الإعجاب واللذة الفكرية من تقارض النظم . ولكن الغيرة كانت تأكل زوجها ، حتى حدث بينما كانت جالسة إلى المائدة تتعشى هي وشاعرها الأيطالي هذا ، وأسمه ريتسيو ، أن دخل عليها اللورد دارنلي زوجها ، وجرد خنجره وطعنه جملة طعنات كانت القاضية عليه

ومن هذا الوقت صارت ماري تكره زوجها ، وكانت تداريه وتسايره لأنها كانت حاملاً ، وتخشى أن لايعترف بالطفل الذي على وشك أن تلده . وقد صار بعد ذلك ملكاً على أنجلترا وأسكوتلانده بأسم چميس الأول

وكان اللورد بوثول يلازمها لاتطيق فراقه . ويؤثر عنها قولها عنه ، وهي في سورة الغرام : « ليس كبيراً عليّ أن أفقد عرش أسكوتلانده وعرش أنجلترا معاً ما دام هو لي »

وقد كتبت إليه في هذه الفترة جملة خطابات ، فكانت تنضي إلى حبيبها بدخيلة سريرتها ، وتظهره على سويداء قلبها

وحدث بعد ذلك أن قتل زوجها في حادثة تفجر بارود لم يعرف الجاني فيها . ثم عقب ذلك ، أن ماتت زوجة اللورد بوثول موتاً أثار الشكوك . ثم لم يمض على موتها قليل ، حتى تزوج اللورد بوثول من ماري

ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً . فإن الأسكوتلانديين هاجوا لهاتين الجنايتين . فقد خرجا في أدنبره فسارت مركبتهما بين نعيق العامة . وكانت النساء تطلق أوقح الأسماء على الملكة . ونصبت لها رايات كبيرة، رسمت فيها صورة دارنلي وهو يقتل

ثم ثار عليها النبلاء ، فقادت إليهم جموعاً من الرعاع ممن أختارتهم لخدمتها . ولكنها إنهزمت أمام جيوش النبلاء المنظمة ، وقبض عليها ،

وأعتقلت في أحد الأطام ، حيث ولدت توأمين هما ثمرة زواجها باللورد بوثول

وقد قلنا أنه كان لشخصيتها فتنة لا يقوى أحد على مقاومتها . وهذا ما أفادها في معتقلها ، فقد أغرت الحرس وأغوتهم حتى أطلقوا سبيلها ، ومهدوا لها الفرار . وخرجت متنكرة كأنها غسالة . ولكن رقة يديها وجمال أناملها نما عليها ، فقبض عليها وأعيدت . ولكنها عادت ثانية وفرت ، يحرسها هذه المرة خمسون فارساً . وواصلت السير حتى دخلت الحدود الأنجليزية . ولكنها لسوء حظها كانت قد أستجارت من الرمضاء بالنار . فقد قبض عليها الأنجليز ، ولفقوا لها تهمة قتلوها بها ، بعد أن أعتقلوها مدة

اما زوجها ، فقد فر إلى الدانمارك ، حيث أعتقله ملكها أيضاً ، ومات غريباً عن بلاده

الملكة إليصابات

يؤثر عن إليصابات ملكة أنجلترا قولها وهي تصتبي : « أحب أنجلترا أكثر من أي شيء في العالم »

ولم تكذب في هذا القول ، فقد كانت تخطط الخطط ، وترسم الترسيمات ، لكي تفوز أنجلترا في معترك السياسة الأوروبية . ومن أجل أنجلترا نزلت إليصابات عن جملة وافرة من حقوقها الملوكية ، ونزلت أيضاً عن كرامتها . فكانت تكذب ، وتخون ، وتخنث ، من أجل أنجلترا. بل كثيراً ما نافقت في الحب ، وتظاهرت به رياء ، لكي ترفع من مجد بلادها وعزها

وقد كانت مع ذلك إمرأة تحب الدلال ، ركَبت نفسها على ما رُكبت عليه نفوس سائر النساء من حب التمليق ، ورؤية الناس يعجبون بها ، ويعترفون بجمالها . ولذلك كانت على الدوام محوطة بنخبة شباب البلاد الذين فاقوا أقرانهم في الجمال والفروسية ، تقضي وقتها معهم في المداعبة البريئة ، التي فيها شيء من أشمام الحب

ولكن نفسها كانت تظمأ إلى الحب الصحيح في هرج هذه المداعبات .

ولذلك ما هو أن عرفت وألفت إرل لستر ، حتى وجدت فيه ربها وعلقته، وصارت تكتوى بنار حبه

أرتقت إليصابات عرش أنجلترا وهي في الخامسة والعشرين من عمرها . وقد وصفها مبعوث ألماني أرسله مولاه لكي يتعرف حال هذه الملكة ، فكتب عنها يقول :

« إنها تعيش عيشة لا يكاد الأنسان يتصورها ، لفرط ما فيها من البذخ وإيلام الولائم . وهي تقضي كثيراً من وقتها في المراقص والولائم والصيد وسائر هذه الملاهي . تفعل هذا كله في مظاهر وزينة ومع ذلك فهي حريصة على أن تكون محترمة عند الناس أكثر من الملكة ماري . وهي تعقد البرلمان ، ولكنها تجعل الأعضاء يفهمون ضرورة إطاعة أوامرها في أية حالة »

وكانت بيضاء ، صهباء الشعر ، رشيقة القوام . وكانت لها يدان عجيبتان ، لاتزالان موضوع إعجاب من ينظر إلى صورتها . ويكاد يكون تاريخ حياتها معروفاً بالتفصيل ، لكثرة ما كتب عنها في مدتها، ما نقب عنه المؤرخون بعد ذلك . ويؤخذ من ذلك أنها كانت مزيجاً من ل والهوى . تنتابها نوبات من الجد ، تعقبها فترات من المزاح . نت إذا مازحت ، تمادت ، حتى يبعث تماديها الشكوك . ومما يؤثر نها أنها وهي فتاة لم تبلغ السادسة عشرة ، أتهمت أو أتهم بالأحرى وصيها لورد سيمور ، بمداعبتها . وقيل في التحقيق الرسمي الذي عُمل

بشأن هذه التهمة ، أنها كانت تلاعبه وهي في قميص النوم . ولكن تبين في التحقيق أن هذا اللورد لم يحضر قط إلى غرفتها إلا وهو مصحوب بأمراته

وكان ملك إسبانيا يتعشقها ويراودها على الزواج ، حتى تصير أنجلترا إحدى ولايات مملكته العظيمة . فكانت تطاوله وتمطله خدمة لمصالح بلادها . وكانت تطاول أيضاً لهذا السبب عينه ، جميع من تقدم إليها بطلب يدها من الملوك والأمراء . فعلت ذلك بدوق دالنسون شقيق ملك الدانمارك ، وأمير أسوج وأرشيدوق النمسا ، وغيرهم . وأستطاعت بهذا المطل والتسويف ، وإيهام المتقدمين إليها بأنها تنوي الزواج بهم ، أن توجد الشقاق بين أسوج والدانمارك ، وبين فرنسا وإسبانيا . وأحتفظت بسلامة أنجلترا حتى آذن الوقت بضرب إسبانيا ، فضربتها ضربة لم تبرأ منها للآن

وقد خطر الزواج على بالها ، وكانت تشتهي أن يكون لها عقب ، ولكن حرصها على مصالح البلاد جعلها تتردد كثيراً حتى فاتتها الفرصة . وكثيراً ما كانت تذكر الأولاد وهي تتحرق أسى وكمداً . فقد أثر عنها أنها عندما ذكرت أمامها ملكة أسكوتلاندا أن قالت : إن لملكة أسكوتلاندا إبناً سرياً ، أما انا فأرض قاحلة

وقد أحبت ، وأخلصت في حبها ، جملة رجال من حاشيتها . ولكن كبرياءها أبى عليها أن تنزل عن مرتبتها الملوكية إلى الأقتران بأحدهم .

فقد كانت كلفة بسير ولتر رالاي ، لا تطيق فراقه ، حتى منعته من السفر إلى أمريكا لهذا السبب . وأحبت إرل إسكس ، ولكنها عندما رأته يتعالى ويشمخ ، لم تتراجع عن الترقيع على ورقة إعدامه

ولكن ربما كان أعظم من نال قلبها وتسلط على عقلها ، وعواطفها هو إرل لستر . وقد جعل القصصي المعروف سكوت علاقته بها موضوعاً لإحدى قصصه في كتاب كنلورث . ومما لاحظه أحد المؤرخين أن إليصابات أنعمت على جميع من أحبتهم ، فحبتهم بالمناصب السامية إلا لستر هذا . وذلك لأنها كانت تشعر بخطورة ترقيته ورفعه إلى مركز سام. كأن قلبها كان يحدثها بعظم مكانته في نفسها ، وانها إن فعلت ذلك لم تقو على رده عن التزويج بها أو التسلط عليها في شؤون المملكة

وكان إرل لستر جميلا شجاعاً ، ويقال أنه قتل إمرأته لكي يتفرغ للملكة . وأن الملكة كانت تعرف هذه الجناية ، وتسترت عليها ، لأنها أرادت أن تحتكر قلبه ، وتحظى بشخصه قريباً منها في كل وقت

وقد كان والد إليصابات ، الملك هنري الثامن ، مشهوراً بحبه للنساء، ونزوعه إلى تغييرهن . حتى تزوج ثماني نساء . فلا عجب أن تكون أبنته قد نشأت على طبعه ، وربما منعها من الزواج هذه الطبيعة التي ورثتها عن والدها . فما كانت تثبت على حب ، إلا حب إرل لستر الذي حال كبرياؤها دون أن تستسلم له كل الأستسلام ، وترضى بزواجه

وقد عاشت إليصابات إلى أن بلغت السبعين . وكانت تدهن بالأدهان

وجنتيها ، وتصبغ شفتيها ، وتخفي نحول الشيخوخة بملابس متوشة . وكان رجال حاشيتها يتملقونها وهي في هذه السن ، فتستجيب لهم بالإبتسامات والدعابات ، كأن هذه الفطرة التي نشأت عليها لم تبل بتقادم الزمن

وليس بين ملوك أنجلترا من هو أقرب إلى قلوب الأنجليز من الملكة إليصابات . وأكبر ما يحببها إليهم أنها رفعت شأن البروتستانتية ، وجعلت البحرية الأنجليزية تسود البحار ، وكانت تسوغ كل شيء لرفع شأن أنجلترا . فالإنجليزي لايضن عليها بإكرامه ذكرها ، مع تقلب أهوائها ، وكثرة محبيها ، وغدرها بهم أحياناً

مـــــاري أنطوانيـــت

ولدت ماري أنطوانيت سنة ١٧٥٥ ، وكانت أمها ماري تيريزا إحدى ملكات النمسا وأوروبا الشهيرات . وكان وجهها معروفاً ، يكاد يكون نحيلاً ، وكانت عيناها صغيرتين تشبهان عيني الخنزير . وكانت شفتها غليظة . وزاد الطين بلة أنها لم يكن قوامها معتدلاً ، حتى كانت وهي طفلة تُلف وتُعصب حتى يعتدل ما أعوج من قوامها

وعندما بلغت الرابعة عشرة ، خطبت إلى ولي عهد فرنسا . وكانت في ذلك الوقت قميئة الهيئة ، ليس فيها من صفات الجمال سوى تاج ذهبي من الشعر الكثيف . وبعد عام تزوجت من ولي العهد ، وأنتقلت إلى البلاط الفرنسي في باريس

وكان لايزال للبلاط الفرنسي في حكم لويس الخامس عشر بعض الكرامة في عين الجمهور ، وكان لايزال فيه شيء من لألاء البلاط السابق. فكان الناس يأتون كل صباح لكي يروا الملك وهو يلبس ملابسه ويتناول فطوره . يفعل كل ذلك علانية أمامهم ، في أبهاء القصر المكشوفة ، كأنه ممثل على مسرح . فكان بينه وبين الجمهور ألفة وتعلق

وعندما تزوج العروسان ، أمرهما الملك أن لايناما في غرفة واحدة ، وأن يأخذا نفسيهما بالوقار . ولكن ماري أنطوانيت لم تكن لها هذه النفس التي تعرف معنى الوقار ، وتتخذ سمت الملوك ، فسارت سيرة النزق والطيش في القصر . وبلغت أخبار سيرتها إلى والدتها ، فأرسلت إلى السفير النمسوي تقول له : « أخبرها أنها ستفقد عرشها ، وقد تفقد حياتها أيضاً ، إذا لم تصطنع التبصر والتقية »

ولكن النصائح لم تكن تجدي في ماري أنطوانيت ، وربما كان يكون لها وقع لو أن زوجها كان على شيء من « الخلق العظيم ». ولكنه هو الآخر لم يكن أهلاً لأن يكون ملكاً . فقد كان غبياً ، لايهتم إلا لشيئين في العالم ، وهما الصيد والحدادة . فإذا لم يكن في الحقول والغابات ، يقفو أثر طير أو ثعلب ، كان أكثر ما يكون في دكان حدادة صنعها لنفسه ، يقضي فيها وقته بين الكير والزندان ، يصنع قفلا أو نعلاً أو مسماراً . فإذا خرج من دكانه وقد كساه نواس الدخان ، لقي زوجته وهي في ملابسها الهفهافة ، وقد علاها زبد من النسيج المحزم ، وعبق حولها أريج العطور

وقد يكون في هذا الأختلاف بينهما في المزاج ، ما يخفف من تبعة ماري أنطوانيت . فقد كانت تحب اللهو ، بمقدار ما كان هو يحب الصيد وصنع الأقفال

وقد كثرت الأشاعات عن ماري أنطوانيت كما كثرت الظنون . فكان

البعض ينتقدها ، بينما البعض الآخر يدافع عنها دفاع المتهكم المعتذر عنها . ولكن نتيجة ذلك كله كانت أحتقارها هي وزوجها ، في وقت كانا فيه في أشد الحاجة إلى أحترام الجمهور . فقد كانت أمائر الطوفان الذي تنبأ به لويس الخامس عشر قد بدأت تظهر ، وأخذ الأستياء تدب عقاريه بين طبقات الأمة . ومات الملك لويس الخامس عشر بالجدري ، وأخرج من القصر في عربة قذرة ، ليس حوله أحد من خاصته أو حاميته. وصارت بذلك ماري أنطوانيت ملكة تطاع ، لاتجد من حميها ما يعارض أهوا ءها ويكبح جماح شهواتها

وكانت هذه الأهواء ، وهذه الشهوة ، قوية . فإنطلقت الألسنة حولها لاتتحرج في شيء تقوله عنها . وكان من أهواء ماري أن تلبس قبعة طويلة مزينة بعشرات من الريش الزاهي المختلف الألوان . وكانت تختار من الملابس الرحب المتهدل على الجسم . ولم تكن تستعمل الكورسيه ، فكانت إذا خرجت إلى حفلة ، بدت للناس كأنها في غرفة نومها

وكان مسلكها هذا مدعاة إلى أتهام الناس لها بأفظع التهم . وكان الملك جامداً نحوها ، لا يأبه بما تفعل . وبقيا مدة طويلة بلا عقب ، حتى أهتم لذلك البلاد النمسوي ، وكتب سفير النمسا يلمّح إلى ضرورة وجود وارث للعرش

وحدث في هذه الأثناء أن زار شريف أسوجي البلاط الفرنسي ، وكان وسيماً ذا طلعة بهية نبيلة ، يدعى الكونت فرزن . وكان شاباً صافي

السريرة . ورأى الملكة فعلقها ، وكتم هواه . فلم يكن يبدو للملكة منه سوى العطف الخفي ، والأشارة المختلسة ، والإيماء الكاسي بالوقار

وكانت ماري أنطوانيت قد عرفت جملة محبين ، ولكنهم كانوا يستغلون حبها لمصلحتهم . أما فرزن فلم يكن يبغي من الحب سوى الحب . فأكبرت الملكة هذه العاطفة الشريفة فيه ، وكان قلبها قد ضميء إلى الحب الصحيح الدائم ، تركن إليه في وسط هذه الشهوات الجامحة الزائلة . فلما أيقنت بحبه لها ، أستجابت له ، ولبت رغبته فيها . وتبادلا كؤوس الغرام

ولم يمض قليل حتى أعلن أن الملكة قد حملت ، وأنها على وشك الوضع . فكثرت تقولات الناس وتأولاتهم ، وصار الهمس الخافت صوتاً جهيراً ، لأن حرمة الملوكية كانت قد زالت من النفوس ، وتهيأت الأمة للوثوب على العرش

وبلغ من عماية رجال البلاط أن شقيق الملك وقف شبيناً للطفلة التي ولدت . وبينما الجموع تحتشد في الكنيسة الكاتدرائية الكبرى نوتردام ، تقدم القسيس قبل التعميد ، يسأل عن أسم الطفلة . فقال الشبين :

« لايحسن بنا أن نبتدىء بهذا السؤال . فلنسأل أولاً عن أب الطفلة وأمها من هما ؟ ». وتنوقلت هذه الكلمات ، حتى صار يلوكها كل ساكن في باريس . وصار الناس ينظرون إلى فرزن نظرات التلويح والتلميح . ومما يؤثر عن علاقته بالملكة ، هذه القصة التالية التي كتبها في أحد

خطاباته السفير الأسوجي في باريس إلى ملك أسوج :

« إني أسر إلى جلالتكم أن الكونت فرزن قد تقبلته الملكة قبولاً حسناً ، حتى أساء الكثيرون ظناً بذلك . وأنا أعترف بأنها تحبه ، فقد رأيت على ذلك البراهين التي لا يتسرب إليها الشك . ففي الأيام القليلة الأخيرة لم تحول الملكة نظرها عنه ، وكانت عيناها طول ذلك الوقت مملوءتين بالدموع . وأرجو جلالتكم أن تتحفظوا بهذا السر »

وكانت الملكة تبكي لأن فرزن قد أجمع على أن يسافر إلى أمريكا ، ضناً بشرفها وعرضها أن تلوكهما الألسن . فقد رأى أن العيون ترمقه وتلحظه لحظاً ذا معنى ، فأراد أن يقطع عن حبيبته مع شدة تعلقه بها ألسنة الناس . فعزم على مبارحة فرنسا للألتحاق بجيش لافاييت الذي كان يعاون الأميركيين على نيل حريتهم من الأنجليز . وأذاع قبيل سفره أنه قد عزم على أن يتزوج من إحدى الأسوجيات المثريات

وبقي فرزن في أمريكا ثلاث سنوات ، عاد بعدها إلى فرنسا ، وعادت علاقته بالملكة . وكان تيار الثورة قد أوشك أن يطغي بالملوكية ، وجاء الجزاء العادل للمظالم الغابرة . فحاول فرزن في سنة ١٧٩١ أن يأخذ الملك والملكة ، ويفر بهما ، حتى يخرج من الحدود الفرنسية . ودبر لذلك التدابير اللازمة ، ولكنه أخفق على حدود فرنسا ، وقبضت العامة على الملك والملكة ، وعادوا بهم يتغنون بأناشيد الثورة

وجاءت سنة ١٧٩٢ ، فأخذ الملك ، وفصل رأسه بالمقصلة . وقضت

الملكة بعد ذلك مدة في السجن ، وهي عرضة لمختلف الإهانات المتنوعة من وحوش الثورة الفرنسية ، حتى أخذت هي أيضاً إلى المقصلة وقطع رأسها

وعاش بعدها فرزن عشرين سنة ، ومات هو الآخر في شوارع ستوكهولم على أيدي الرعاع ، الذين مزقوه وهم في جنون الحنق والغيظ . فكانت موتته تشبه موتة الملكة ، إذ مات كلاهما على أيدي الرعاع . وكان قد عاش بعد موت الملكة ، أميناً على حبها ، لايذكر سواها ، ولا يتعزى بشيء آخر

شـــارلـوت كـورداي

كانت شارلوت كورداي فتاة فرنسية تنتمي إلى أسرة شريفة قديمة ، يعد منها كورناي الشاعر . ولكن الدهر أخنى على الأسرة ، حتى صار جملة من أفرادها في عداد الأكارين . ولكنها نشأت في وسط بعيد عن الريف والطبيعة ، فقد قضت صباها في أحد الأديار ، حيث لقنت القراءة والكتابة ، وجال فكرها جولة صغيرة في الكتب المقدسة . وخرجت من الدير ، فلزمت عمة لها عجوزاً . وكان بمنزلها بعض الكتب فالتهمتها التهاماً ، وكان أحب الكتب إليها تراجم فلوطرخس وتاريخ الرومان ، حتى أمتلأ رأسها بقصص المجد والبطولة والتضحية . فكان مناها أن تخدم بلادها ، ويخلد ذكرها في صحف التاريخ ، وتقرن ترجمتها إلى تراجم أولئك الأبطال الذين قرأت عنهم

وشبت الثورة الفرنسية وهي في حوالي العشرين من العمر ، فأهتمت لها ، وأخذت تدرس أسبابها ، وترقب تطورها . وكانت تعطف على العامة لقيامهم على الحكومة ، ورغبتهم في قلبها . لأنها رأت بعينها عسف النبلاء والموظفين بالأهالي ، الذين كانوا يئنون من الضرائب

الباهظة ، يلي بعضها بعضاً طوال العام ، حتى عم الفقر البلاد ، وشمل الشقاء جميع الطبقات ، عدا الأشراف والموظفين وكل متصل بالبلاط

ولكن الثورة الفرنسية تولى قيادتها فئة من الغلاة ، أخذت في التقتيل وإضطهاد المخالفين لمذهبها ، القائلين بالتؤدة والأعتدال . فضج الناس من ظلمها . إذ بعد أن قتلت الملك والملكة ، وأتبعتهما بعدد كبير من الزعماء وقادة الرأي ، أخذت تبث العيون بحثاً عن الخونة . و«الخونة» في عرف هذه الفئة لم يكونوا سوى كل معتدل يجرؤ على نقد رجالها وأعمالهم

وكان «مارات» زعيم الفئة السفاكة ، قد بدأ حياته بمزاولة الطب ، ودرس العلوم الطبيعية . وبرع في هذا الدرس بعض البراعة . أقر له جيته ، الأديب الألماني ، وفرانكلين العالم الطبيعي المعروف ، بما أداه من الخدمة في درس الكهربائية . ولكن ما نشبت الثورة الفرنسية حتى نفض مارات عنه رداء العلوم ، وتقمص ثوب السياسة ، وأنغمس في حمأتها . حتى جلب على نفسه عداء عدد كبير من الناس ، لغلوه في الدعاية إلى الجمهورية ، وإضطهاد المعتدلين القائلين بتقييد الملكية بدستور على النحو الأنجليزي . وأخذ أعداؤه في مناوأته ، والبحث عن أذاه ، حتى أضطر إلى الهجرة إلى الريف خوفاً مهم ، وبقي هناك مدة ، عاد بعدها إلى باريس خفية

ولكنه وجد أعداءه يقظين ، يترقبون مجيئه ، ويفتشون عنه . فأختفى

منهم في مكان لا يخطر ببالهم أن الكلاب تعيش فيه ، إذ لم يكن هذا المكان سوى سرداب تجري فيه أوساخ مراحيض باريس . فكمن فيه مختبأ ، يرسل على اعدائه منه سهاماً من المقالات المسمومة ، ويحرض عليهم ، ويغوي العامة بهم . وناله من مقامه في ذلك السرداب مرض جلدي شنيع، يُقذي عين الناظر ، ويُؤلمه أشد الألم ، حتى أنتهي به الحال أن يخفف وطأته عليه بأن يقعد طول نهاره في حوض ماء دافيء

وكانت شارلوت تسمع عن مارات أنه زعيم الفئة السفاكة ، وأن المقصلة لا تهدأ عن قطع الرؤوس ، مادام هذا الرجل حياً . وكانت تعيش في نورماندي ، حيث أكثر السكان من الچيرونديين أي المعتدلين. «فكانت تغشى إجتماعاتهم ، وتشرب آراءهم ، حتى وقر في ذهنها ، وثبت في قلبها ، أنه لا نجاة لفرنسا إلا بقتل مارات »

ففي سنة ١٧٩٣ ، قر قرارها أن تذهب إلى باريس وتقتله . وحصلت على جواز سفرها من بلدتها كاين في نورماندي إلى باريس (ولايزال هذا محفوظاً). وقد جاء فيه مايلي : « أجيزوا مرور ماري كورداي ، عمرها ٢٤ عاماً ، وطولها خمس أقدام وبوصة ، ولون شعرها وحاجبيها كستني ، وعينيها سنجابيتان ، وجبهتها عالية ، وفمها متوسط ، وفي ذقنها ندبة ، ووجهها بيضوي »

ويوجد أيضاً لها رسمان باقيان للآن ، يتبين منهما أنها كانت جثلة الشعر ، عيناها تنطقان بالإخلاص والشجاعة . وكان قوامها معتدلاً،

ينطوي على الجمال والرشاقة

ولما وصلت باريس ، أرسلت إلى مارات ورقة تقول فيها : « أيها الوطني . لقد وصلت من كاين هذه الساعة . وليس شك في أن حبك بلادك ، يُرغبك في أن تعرف الحوادث التي حدثت في هذا الجزء من الجمهورية . وسأزورك بعد ساعة . فأرجو من أحسانك أن تتكرم بمحادثتي ، وسأفيدك بما فيه منفعة فرنسا »

فرفض مارات أن يتلقاها . فعاودت الطلب ، وعاود الرفض . ثم جاءت مرة ثالثة ، وأخذت تتكلم مع الخادم ، وتلح في رؤية مارات . وسمع مارات صوتها فأستدعاها ، وكان قاعداً في حوض يغمر الماء معظم جسمه ، وهو يقرأ ويكتب . فلما دخلت ، حيته ، وأخذت تصف له جماعة الجيرونديين المعتدلين في بلدتها وما ينوون فعله . فلما سمع مارات ذلك قال لها : « جميع هؤلاء الذين تذكرينهم سيقتلون قريباً في بضعة أيام »

وكانت شارلوت قد أشترت سكيناً من نوع السكاكين التي تستعمل في المطابخ ، فأخرجته من صدرها ، وطعنت مارات به عدة طعنات، مزقت قلبه ورئته . وصاح مستغيثاً ، فدخلت خادمتاه ، وأوثقتا شارلوت، وسرعان ماجاءت الشرطة وقادوها إلى المخفر

والآن قد يتساءل القارئ : أين هو الغرام في هذه القصة الطويلة ، وقد أدركنا خاتمتها أو كدنا ؟

والحقيقة أن غرام شارلوت كورداي من أعجب ما روته كتب التواريخ.
فإنها عندما قُدمت للمحاكمة ، كان قد تسامع الناس عن الجناية ، وأخذوا في الحديث والمبالغة في الرواية ، عن هيئتها وسيرتها . حتى بلغ الخيال من بعضهم أن صار يصفها كأنها غول بشع . فأزدحم الناس إلى المحكمة لرؤيتها . وكان بين هؤلاء المتزاحمين شاب ألماني يدعى آدم لوكس ، بعثه الأستطلاع على أن يذهب هو الآخر ليرى هذه الغولة

ولكنه ماذا رأى ؟. رأى وجه فتاة قد جلل وجهها الشعر الجميل ، يزيد حسنه منديل أبيض قد ربط فوقه على عادة الفتيات النورمانديات.
ورأى عينين يتجلى فيهما الوقار والجد ، وتكاد أن تختفيان وراء الأهداب الطويلة السوداء . ورأى وجهاً يتبض بالصحة الوفيرة ، وقد أحتقن بفعل الشمس والهواء الطلق . هذا إلى صدر منتفخ ، وذقن كأنها ذقن قيصر ، كلها إرادة وعزم . تكسو جميع ذلك هالة قدسية من التضحية وبذل النفس ، في مصلحة الوطن . ولم يرها آدم لوكس سوى مرة أخرى في ١٧ يوليو وهي تحت المقصلة . ولكنه سحر بجمالها فأخذته روعته ، أفتتن بجلالة نفسها ، وذهب يوم إعدامها إلى المقصلة ، وسمعها بأذنه وهي تقول قبل أن تهوي على عنقها : « حسبي أني أديت واجبي .. وما عدا ذلك فباطل»

فجن جنون آدم لوكس ، وذهب في كل مكان يلعن القضاة الذين حكموا عليها ، ووضع رسالة في ذلك قال فيها :

« ليست المقصلة عاراً الآن ، إذ قد صارت منذ ١٧ يوليو منبحاً قد غسل من كل دنس بهذا الدم البريء . أجل يا شارلوت المقدسة ، إغفري لي إذ لم يبد مني في الساعة الأخيرة تلك الشجاعة ، وتلك الوداعة ، اللتان هما من صفاتك . أنه لمن مجدي أن أجدك تفضليني ، لأنه حق أن يفضل المعبود عابده »

وأنتشرت هذه الرسالة بين الناس ، وقبض على آدم لوكس ، وقدم إلى المحاكمة . وكان كما قلنا ألمانياً ، فكان القضاة على الرغم من أن موضوع الرسالة لايعدو أن يكون شرحاً لعسفهم وسباً فيهم ، يميلون إلى تبرئته ، على شرط أن يجحد ما قاله ، وأن يعود إلى ألمانيا

ولكن القضاة كانوا يجهلون الطور الذي بلغه آدم لوكس في حبه شارلوت . فقد كان حبه لها قد بلغ حد العبادة ، حتى صار يخشع لذكراها ، ويتأوه عندما تخطر بباله . فكانت في الحقيقة وسواسه وهمه . ولذلك ما كاد أن يسمع من القضاة أقتراحهم جحد ما قال في الرسالة ، حتى أنهمرت من فيه ألفاظ السباب ، فأخذ يشتمهم ويحقرهم ، ويمجد ذكر شارلوت تمجيد العابد لربه

وحكم عليه بالإعدام . فأسفر عندئذ عن وجهه ، وسار إلى المقصلة مستبشراً ، واثقاً أنه أدى ما عليه نحو شارلوت

نابليون وماري ڤالڤسكا

كانت هموم نابليون في الفتح والحروب ، ومشاغله في مكايدة أمراء أوروبا وملوكها ، وسوس رعاياه ، تحول دون صرفه إهتمامه إلى الحب والغرام. فكان لا ينظر إلى المرأة إلا بمقدار ما فيها من المحاسن التي تلبي شهواته الدنيا . فكان يشتهي دون أن يحب . ولكن المرأة التي كان يشتهيها كانت تجد فيه من صفات الرجولة وسمات العظاميين والتفوق النادر والطموح الدائم إلى السيادة ، ما كان يجعلها تتعلق به وتعشقه وتحبه حب التضحية . وقد عرف نابليون جملة نساء قل منهن من خنه ، وكثر منهن من أخلصن له وعشن على ولائه

ومن هؤلاء النساء مدام ماري ڤالڤسكا . كانت فتاة بولندية في الثامنة عشرة من عمرها . وكانت غاية في الجمال . كأنها دمية إغريقية. وكان في عينيها حور ، وفي أهدابها طول يزيد قوة هذا الحور وأثره في نفس الناظر . وكانت تنتمي إلى أسرة فقيرة ، ورآها أحد أشراف بولندا ، وكان رجلاً فانياً مسناً فأحبها حب العشق والوله ، وتزوج بها

وحدث أن دخل نابليون بولندا في سنة ١٨٠٧ بعد أن هزم النمسا وقضى على جيوش ألمانيا . وكان البولنديون يتوسمون فيه المخلص لبلادهم ، المعيد لهم إستقلالهم من الأمم الثلاث التي أقتسمتها ، وهي روسيا والنمسا وألمانيا . فقابلوه بمظاهر الحماسة والتهليل . وكانت عربته لاتدخل إلى بلدة من بلادهم ، حتى كانت طاقات الزهر تغمرها وتنثر تحت أرجل خيولها . وكان قد تطوع في الجيش الفرنسي آلاف من البولنديين ، الذين كانوا يرجون أن يحققوا إستقلال بلادهم على يدي نابليون . وكان نابليون يعرف قيمة هذا الأمل في تقوية جيشه ، فكان يمني البولنديين بالوعود الخلابة ، ويعللهم بالأماني التي كان يعرف هو نفسه كذبها ، وعدم إمكان تحقيقها

فبينما كان نابليون في مدينة برونية ، سائراً في عربته والهتاف يتعالى والنساء يزحمن الرجال ، وعطر الزهور يعبق في الهواء ، إذا بصوت حلو يقول : دعوني أمر حتى أراه ولو لحظة واحدة

وكان هذا صوت ماري ڤالڤسكا . وما هو أن شقت طريقها إليه ، وصارت أمام العربة حتى قالت : أرحب بك ثلاثاً يامولاي . إننا مهما قلنا أو فعلنا ، فلسنا نقدر على أن نترجم عن شعورنا بالفرح لمقدمك ، وعن رجائنا بأن تخلص بلادنا من الظلمة

فتأثر الإمبراطور من جمالها ، وأنحنى أمامها ، وأخذ طاقة من الورد وقدمها إليها قائلا : خذي هذه برهاناً على إعجابي . وإني أرجو أن

ألتقي بك في ڤارسوڤيا لكي أسمع من هاتين الشفتين كلمات الشكر

ولم يكن نابليون ممن ينسون شيئاً يسر أو يضر . فما هو أن وافى ڤارسوڤيا حتى سأل عن الفتاة ، وطلب قدومها إليه

ولم تمض ساعات حتى كان الأمير بونياتفسكي ، يرافقه آخرون من نبلاء بولندا ، قد وصل إلى منزل الفتاة ، يسألها التوجه إلى الإمبراطور . وتعجبت الفتاة من هذه الدعوة ، وحرص نابليون على معرفة منزلها ، وأحتفاله بها حتى يرسل إليها بضعة من أشراف قومها ، لكي تحضر معهم إليه . فغمرها الحياء حتى صبغ وجنتيها . ثم قال الأمير :

« هذا ياسيدتي هو ما أمرني به جلالته . طلب إلى أن أدعوك إلى الحضور إلى الأحتفال الذي سيعقد للرقص هذه الليلة . ولعل الله قد قدر أن تكون نجاة بلادنا على يديك »

وكانت ماري تغالي في وطنيتها ، وتتوق إلى أستقلال وطنها ، فكانت هذه الوطنية تغريها بالذهاب إلى نابليون . ولكن شيئاً وسوس في صدرها بأن نابليون لايبغي خيرها من هذه الزيارة ، فترددت ، ثم أحجمت

وما كاد هؤلاء الأشراف يخرجون حتى جاءها فوج آخر من الأهالي الذين عرفوا بخبر هذه الدعوة ، وصاروا يلحون عليها في تلبية دعوة الإمبراطور . حتى زوجها نفسه ، لم يحجم عن التضحية بعرضه الشخصي لأجل منفعة وطنه . فأخذ هو الآخر يلح عليها بالذهاب

فذهبت تلك الليلة إلى الأحتفال ، وقعدت منزوية في إحدى نواحيه، لأنها كانت تجهل فن الرقص . وبينما هي تكلم الأمير بونياتفسكي ، وإذا بشخص قد وقف إلى جانبها . شعرت هي أنها لا تجسر أن ترفع نظرها في وجهه . وكان هذا الواقف نابوليون ، الذي فاجأها بقوله : لقد اخطأت في إختيارك هذا اللباس الأبيض . لأن الابيض لايشاكل الأبيض

ثم أنحنى عليها ، وقال وهو يهمس : كنت أنتظر أستقبالاً آخر

فلم تقو ماري على التبسم ، أو على التطلع إلى وجهه . ثم تركها في مكانها ، وسار بعيداً عنها . وأنتهت الحفلة ، وخرج المدعوون ، وذهبت ماري إلى دارها ، وقلبها مفعم بالأحساسات المختلفة

وفي الصباح ، وماري تتقلب على فراشها تحاول ترتيب هذه الأحساسات ، وإذا بالخادمة تدخل وتناولها مظروفاً ، فضته وقرأت فيه هذه العبارة الموجزة :

« لم أر أحداً غيرك . لم أعجب إلا بك . لا أرغب إلا فيك . أجيبي فوراً وهدئي روعي » «ن»

فلم يبق شك عند ماري في الغرض السافل الذي يطلبها من أجله نابوليون . فأخذتها العزة بالعرض ، وشاع الغضب في جسمها ، وحمى رأسها ، ثم تفجرت عيناها بالدموع . فأخذت تنشج أحر نشيج ، وتبكي مر البكاء ، وتندم على تحيتها له وهو مارٌ في العربة

ولم تجب على رسالة نابوليون ، وبقيت إلى اليوم التالي . ولكن ما

أتى عليها صباحه حتى سلمتها الخادمة خطاباً آخر . فأخذته ورفضت أن تفتحه . ثم توافد الزائرون إلى بيتها ، وهي راقدة في سريرها ترفض إستقبالهم . وكان جميع الزائرين يعرفون غرض نابوليون ، ويستهينون بعرض المرأة يبذل في سبيل تحرير الوطن . حتى زوجها نفسه ، صار يعنفها على عدم تلبيتها دعوة الإمبراطور . وأخذ الناس من أهالي بولندا ، المشتغلين بتحرير بلادهم ، يرسلون إليها الخطابات ، يسوغون لها فيها التضحية بالعرض ، من أجل رفعة الوطن وكرامته وأستقلاله

وهكذا قضي أن تتألب جميع القوى على هذه المرأة ، لكي تذعن لإرادة نابوليون . وكانت قد أقيمت وليمة كبرى دعيت إليها ، فأجابت

فلما ألتأمت الوليمة ، مر نابوليون على المدعوين ، ووقف عندها .

وقال : سمعت أن المدام كانت متوعكة . فعسى أن تكون قد شفيت

ولم يزد على ذلك كلمة طوال السهرة ، يوهمها بذلك أنه لم يعد يبالي بها . وكان نابوليون داهية ، يرمي إلى غرض بعيد في كل ما يفعل ، فأخذ هو في تلك السهرة ينظر إلى بعض النساء ، ويقبل عليهن بالحديث، كأنه مشغوف بهن ، وكأنه قد نسي ماري التي أعرض عنها تمام الأعراض وفي خلال ذلك تلحظه ماري ، وتأسف على تلك الفرصة التي عرضت وفاتت ، دون أن تنتفع بها

وأنتهت السهرة ، وطلب إلى ماري أن تبقى . فبقيت ، فجاءها أحد قواد نابوليون وناولها رسالة . فلما فضتها وجدت أن نابوليون يضرب

لها ميعاداً تلك الليلة للقائه ، ويهيئ لها الوسائل اللازمة لإخفاء أمرها

ثم لم تمض برهة قليلة حتى طرق الباب ودخل خادم ، وناولها ما تستر به وجهها وجسمها . ثم خرجت معه ، وركبت عربة صارت تنهب بها الشوارع ، حتى أنزلتها أمام قصر كبير صعدت درجه ، وصارت في إحدى غرفه الرحبة

فما كادت تستريح حتى جاءها نابوليون ، وجلس قريباً منها دون أن يلاصقها ، وأخذ معها في الحديث حتى أطمأنت ، وأنست به ، حتى إذا وشك النهار أن يطلع قال لها :

« والآن يا حمامتي . إذهبي إلى دارك وأستريحي . لاتخشي النسر (نابليون) فسيأتي وقت تحبينه فيه ، فينفذ لك جميع أوامرك »

ثم ودعها إلى الباب ، ووقف عنده ، وقال أنه لن يفتحه حتى تعده بالمجيء في اليوم الثاني . فوعدته ذلك

وفي اليوم التالي جاءتها منه هدايا الزهر والألماس ، فتناولتها وأذرتها في الغرفة وهي مغضبة . ولكنها مع ذلك ذهبت إلى الوليمة . وعندما أنتهت السهرة ، بقيت كما فعلت في الليلة الماضية . وجاء إليها نابوليون والغضب يقدح عينيه ، وقال لها :

« لِمَ لم تلبسي الألماس الذي أرسلته لك ؟. لِم كنت تعرضين وتتحامين أنظاري هذه الليلة ؟. هذه مسبة لا أطيقها . يجب أن تعرفي أني منتصر عليك ، وأنه يجب أن تحبيني . يجب أن تحبيني . فإني قد

رددت إلى بلادك أسمها ، وحظها الآن في كفي »

ثم أخرج ساعته وقبض عليها ، وقال : « أنظري إلى هذه الساعة ، إن بلادك في يدي الآن مثل هذه الساعة . وإني أقدر على أن أمزقها شذر مذر ، إذا لم تجيبي طلبي ، وأتركها شظايا كما أفعل بهذه الساعة»

قال ذلك ، ورمى الساعة بكل قوته إلى الحائط ، فذهبت شظاياها في كل جانب من الغرفة . وأرتاعت ماري لهذا المنظر ، فأغمى عليها . وأفاقت وهي بين ذراعي نابوليون

وبعد ذلك صارت ماري خليلته ، لايفارقها في حروبه أو وقت السلام في باريس . وأحبته هي حب العبادة ، فكانت تضحي بكل شيء من أجله . ولم تكن تطمع في شيء سوى حبه ، حتى أنه عندما أنهزم وأستأسر في سنة ١٨١٥ ، ونفي إلى جزيرة القديسة هيلانة ، طلبت أن تذهب معه . ولكن حيل بينه وبينها . وعاشت مدة وجيزة بعده ، وماتت فقيرة . وكانت آخر كلمة لفظتها في نزع الموت هي : نابوليون !

وكانت كلما أستأدت نابوليون وعده بتحرير بلادها ، يراوغها ويقول: « إني أحب بلادك ، ولكني لا أستطيع أن أسفك دماء الفرنسيين من أجل بلاد أجنبية عنهم »

وقد ولدت لنابليون ولداً ، هو الوحيد الذي عاش إلى سن الشيخوخة من نسل نابليون . وقد أستخدمه نابليون الثالث ، وعينه في المناصب العليا ، فأداها بذمة وأمانة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماري لويـــز

في سنة ١٨٠٩ ، كان نابوليون في أوج عزه وسلطانه ، قد خضعت له أوروبا كلها أو معظمها . وعندئذ أخذ صباغ الثورة الذي تخضب به ، ينصل عنه . وصار يرتدي رداء الملوك ، ويحمل شعارهم ، ويبحث عن زوجة تلد له ولي عهده الذي يحمل أسمه ويخلد ذكره

وكان إلى هذا الوقت متزوجاً جوزفين ، تلك الأرملة الجميلة التي عشقها وهو بعد ضابط فقير . فإنفصل منها ، وحصل على طلاقها ؛ وأجال نظره في قصور الملوك في أوروبا ، ينشد أميرة من سلالة ملوكية قديمة ، تكون أماً لملك أو إمبراطور ، يحمل أسم نابوليون

وكان لقيصر روسيا أخت جميلة ، فطلبها نابوليون من القيصر . فأبى أنفة من مصاهرة هذا الإمبراطور المحدث ، وإشفاقاً على أخته أن تقع بين براثن هذا النمر . فتحول عنه إلى إمبراطور النمسا والمجر ، ولم يكن له بين ملوك أوروبا وأمرائها من هو أعدى له منه . فقد حاربه خمس مرات وهزمه ، ودخل نابوليون مدينة ڤينا على رأس جيشه الظافر ، وأذاق أهلها ذل الهزيمة ومهانة الأنكسار ، فكان الإمبراطور

فرانسز يكرهه كما يكره الأنسان مبدأ ومتحياً يريد أن يمحقه من الوجود

ولكن سياسة النمسا في ذلك الوقت كانت في يد الأمير مترنيخ ، وكان داهية عظيماً . فلما علم برفض قيصر روسيا ، أغتنم هذه الفرصة وعرض على نابوليون أن يتزوج أبنة الأمبراطور فرانسز ، وكان يقصد من هذا الزواج ضمان العرش النمسوي ، وتأمين الإمبراطورية من غزوات نابوليون ، وإن كان في ذلك يضحي بهذه الفتاة الغريرة

ولم تكن هذه الفتاة ، ماري لويز ، قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها. ولم تكن قد رأت نابوليون ، وإنما كانت تسمع عنه ما كان يحكيه أبوها وعمومتها ، وكانوا كلهم يدعونه « الغول »

وكانت ماري لويز مديدة القامة ، بيضاء ، يجلل وجهها شعر كستنائي اللون ، يميل إلى البياض . وكانت وجنتاها متوردتين ، يتدفق ماء الشباب بل الصبا من وجهها . وكان فمها واسعاً ، عليه طابع آل هابسبورغ في تلك الشفة السفلى المتدلية ، التي ترى للآن في ألفونسو ملك أسبانيا

وأدرك أبوها قيمة الأتحاد مع نابوليون ، فرضي بذلك . وقبل نابوليون الزواج ، وحدد له ميعاداً . وذهب الإمبراطور فرانسز إلى أبنته وكاشفها بهذه النية . فإرتاعت لأول وهلة ، وسألتهم كيف كانوا يدعونه « غولاً » ، وكيف تتزوج برجل هذه صفته !

فأخذ أبوها في طمأنتها ، حتى أستكانت إلى حظها ، ورضيت

بالتضحية بنفسها لأجل أمان بلادها . وكان مما قالته لمترنيخ عندما كان يغريها بأن يقدم لها جميع ما تطلب : « لست أطلب سوى ما يأمرني الواجب أن أطلب »

وأعلنت بعد ذلك خطبة نابوليون لها ، وصارت فينا وباريس كلتاهما تتنافس في الأحتفال بالزواج القادم وتعد له معداته

وأرسل نابوليون في هذه الفترة خطاباً إلى خطيبته ، قد أمتزجت فيه لهجة الحب بلهجة السياسي الدائب في المفاوضة . قال :

« يا أبنة عمي :

« إن الصفات الباهرة التي يتزين بها شخصك ، قد أوحت إلى نفسي الرغبة في أن أخدمك ، وأكون على ولائك . وعندما عرضت رغبتي هذه على والدك الأمبراطور ، ورجوته في أن يأتمنني على سعادتك ، كنت أمني نفسي بأنك سوف تدركين العواطف التي دفعتني إلى هذا العمل . فهل لي بأن أملق نفسي ، وأقول بأن قرارك لن يكون عائداً إلى الطاعة الأبوية فقط !. ومهما يكن إحساسك من ناحيتي ، أو ميلك إليّ ضعيفاً، فأني أريد أن أحتفظ بهذا الأحساس وهذا الميل . وسأجتهد في أن أكون سبب مسرتك ، حتى أني من الآن أملق نفسي ، معتقداً بأنك سوف تستحسنين شخصي . وهذا غاية ما أريد أن أصل إليه ، ولأجل هذه الغاية أريد من سموك التعطف عليّ »

وكثيراً ما فُوجئت الأميرة وهي تبكي في تلك الفترة قبيل الزواج

بأيام . وقد قضى أبوها معها يوماً كاملاً وهو يطمئنها ويقويها . وكان الجميع يشعرون أنها قد ضُحي بها في سبيل سلامة الأمبراطورية

وجاء ميعاد مغادرتها ، فأحتفل الأهالي بذلك أحتفالاً عظيماً . ومما يدل على حالتها العقلية في ذلك الوقت ، أنها كتبت هذه الرسالة إلى والدها ، عندما وقفت العربات لأستراحة الخيول بعيد ڤينا :

« إنني أفكر فيك على الدوام ، وسوف أفعل ذلك دائماً . فقد منحني الله القوة لأن أتحمل هذه الصدمة الأخيرة ، وفيه وحده أضع كل ثقتي . فهو سيكون في معونتي ، ويمنحني الشجاعة ، وبذلك أتقوى في تأدية واجبي نحوك . إذ أنني قد ضحيت بنفسي لأجلك »

وبهذه الحالة العقلية دخلت ماري لويز فرنسا . وكان نابوليون يذكر ماري أنطوانيت وحاشيتها النمسوية ، وكراهة الفرنسيين لهذه الذكرى . لهذا أمر جنوده بمنع النمسويين المصاحبين للأميرة من دخول فرنسا . فرجعوا من الحدود ، وبقيت الأميرة وحيدة بين هؤلاء الأغراب . وشعرت بوحشة بينهم آلمتها ، وأعادت إليها ذكرى صباها وشبابها بين بني وطنها

فلما صار بينها وبين باريس نحو ستين ميلاً ، تلقاها نابوليون في ليلة مكفهرة عاصفة ممطرة . فركب إلى جانبها ، وهي لا تتبين وجهه ، حتى وصل إلى قصره في ساعة متأخرة من الليل

* * *

وأستيقظت في الساعة الحادية عشرة ، ولم تقدر على مبارحة سريرها وعاشا معاً في وقار الملوك . وكان نابوليون في سن والدها ، ولذلك لم يكن يأذن لرجل أن يخاطبها إلا في حضرة إحدى وصيفاتها

وفي عام ١٨١١ ، نال مبتغاه ، وولدت له زوجته ولي عهده « ملك رومية». ثم جاءت سنة ١٨١٢ ، وبدأ حملته المشئومة على روسيا

وفي ذلك العام ، عرفت ماري لويز الكونت نيبرج . وكان نمسوياً ، وعدواً لدوداً لنابوليون ولجميع الفرنسيين . جرح في إحدى المعارك ، ففقد إحدى عينيه ، وتأثر وجهه بندوب الجرح . فكان يخفي عينه وهذه الندوب بعصابة سوداء . وكان يمت إلى أسرة نبيلة في النمسا . وكان شجاعاً مقداماً ، يجيد البراز ويفهم الأساليب السياسية ، ويعمل بعقله وقلبه في أن يعكس على نابليون أغراضه . وكان مع ما أصاب وجهه من التشويه ، يجذب إليه النساء بحلاوة حديثه ، وشرف سمته ، ونبالة حركاته

ثم كانت سنة ١٨١٤ ، عندما ترك نابليون السياسة والحروب ، وذهب إلى جزيرة إلبا كأنها منفى إختياري . فقد رأى الساسة النمسويون أن زمان التضحية بفتاتهم قد أنتهى ، وعقدوا النية على أن لا ترجع ماري لويز إلى زوجها ثانياً . وذهبت ماري لويز إلى ڤينا ، ولم تر نابليون بعد ذلك

وعقدت لها حكومة النمسا دوقية بارما في إيطاليا ، بما يلحقها من

الأرضين والأملاك . وسافرت إليها بصحبة الكونت نيبرج

وكان نابليون وهو في جزيرة إلبا يرسل في طلب زوجته وأبنه ، فلا تصل الرسائل . إذ كانت حكومة النمسا تستلمها وتمنع وصولها . ورأى الكونت نيبرج أن ينتقم من نابليون ، فصار يتودد إلى ماري لويز . يغني لها في لغتها ، ويتندر لها القصص ، ويتنزه معها في الجبال والوديان ، ويتلطف لها في الرعاية والخدمة . وكان قلبها أجوع ما يكون إلى مثل هذه المعاملة ، بعد أن رأت من نابليون جفاء الطبع وقساوته

لذلك مالت إلى الكونت نيبرج ، وتزوجت به زواجاً سرياً بعد وفاة نابليون ، وولدت له ثلاثة أولاد ، قبلما مات سنة ١٨٢٩

ونسيت نابليون ، ولم تعد تفكر فيه . ولما بلغها موته ، لم تعر الخبر أقل أهمية . بل خرجت على الفور في نزهة مع الكونت نيبرج

أما نابليون ، فكان في جزيرة سانت هيلانة يتحرق غيظاً لمنعه من مراسلة زوجته . ولم يكن يعرف قصة حبها لنيبرج ، ولكنه عندما عرف لم يقل شيئاً في ماري لويز ، ولم يقدح في عرضها

وقبيل موته قال لطبيبه : « أرجو أن تأخذ قلبي بعد موتي ، وتضعه في كؤول ، وتحمله إلى بارما حيث حبيبتي ماري لويز . وأرجو أن تخبرها بأني أحببتها ، وأن حبي لها لم ينقطع . وأخبرها بما رأيت ، وجميع ما يختص بمركزي وموتي »

وتكاد تكون قصة نابليون وأمرأته أن تكون مأساة ، لولا أنها مشوبة

يقظاظة نابليون وجمود ماري لويز . ومع ذلك ففيها عبرة جديرة بأن يفهمها كل إنسان . وهي أن الحب لا يأتي إقتساراً ، ولايؤخذ غصباً . فإن مفاتيح القلوب ، هي العطف والحنان والولاء

بيـــــرون وتيـــريزا

كان بيرون من أكبر شعراء أنجلترا . كان ينظم الشعر عن سليقة عجيبة ، تؤاتيه في التعبير والخيال عن جميع ما تناوله من الموضوعات. وكانت حياته أيضاً أشبه شيء بقصيدة حافلة بمجازفات الحب والحرب والسياحة

وقد كان بيرون ، وهو بعد صبي ، يشعر بدوافع الغريزة الجنسية ، قبل أن يتم نموها فيه . فكان وهو في الثامنة من عمره متعلقاً بصبية تدعى ماري دف أشد تعلق . ولما بلغ العاشرة ، أحب أبنة عمه . وعندما بلغ الخامسة عشرة ، أحب فتاة في السابعة عشر حباً أعمى . فكان يقفو أثرها أينما ذهبت ، لايسمع لنصيحة ولا يرعوي إلى كلام أصدقائه وذوي قرباه

وقد ولد في يسار ، من أصل نبيل ، فهوى الشعر ثم أحترفه . ولما بلغ الرابعة والعشرين ، ونشر على الجمهور علياءته الكبرى : « تشايلد هارولد » حتى صار شاعر أنجلترا الأول . وقد ربح من هذه العلياءة نحو أربعة آلاف جنيه ، فقويت عزيمته في الشعر والحب . فلم يكن له من

شغل وسلوى سواهما ، يراوح بينهما ، حتى أجمهما في النهاية ، كما يأجم الأنسان نوعاً طيباً من الطعام قد لزمه مدة طويلة

وقام في نفسه في النهاية أن يحقق حياة الخيال التي يصفها في أشعاره . فخلع عن نفسه رداء الترف ، وشخص إلى بلاد الأغريق ، حيث أنضم إلى الجيش اليوناني الوطني ، الذي تألف لطرد الأتراك وأستقلال البلاد وبقي يجاهد حتى مات

وكان مما أمتاز به بيرون ، صورة وجه قال عنها سير والتر سكوت القصصي المعروف : « أنها شيء يحلم الأنسان به » . فكانت النساء يشغفن به لأول مرة يشاهدنه ، وكن يتصدين ويستهدفن له ، حتى ينلن منه كلمة مديح أو اشارة حب . وزاره أحد الألمان ، فقال أن النساء يحاصرنه حصاراً لإفتتانهن به

وكانت لذلك حوادث حب عديدة ، كان هو فيها المطلوب لا الطالب . فقد رأته السيدة كارولين لام ، زوجة رئيس وزراء أنجلترا ، فهامت به أشد هيام ، حتى كان يهرب منها . وعندما رأته لأول مرة صاحت قائلة : « هذا الوجه الشاحب هو ما قدرته لي المقادير ». فلما أنست به قليلاً قالت : « كله سوء ، وكله جنون ، وكله خطر »

وكان مما يغيظ بيرون منها أنها كانت تنظم الشعر وتطلب منه الأطراء الدائم لنظمها وجمالها . وكانت تلح عليه في حبها ، حتى سئمها ، وصار يهرب منها . ودخلت عليه مرة متنكرة في هيئة غلام . ورأت منه

إعراضاً ، فقبضت على مقص ، وحاولت أن تطعن بطنها به

وتخلص منها بيرون أخيراً في سنة ١٨١٥ ، إذ عقد زواجه على آنسة أنجليزية . ولم يكن الدافع إلى هذا الزواج حباً صادقاً لها ، وإنما كانت الحقيقة أنه أعتزم أن ينتهي من حياة الحب المحرم ، ونزغات الهوى ، ويدخل في حظيرة المتزوجين الهادئين . ولكنه لم يحسن الفراسة في هوى قلبه ، ونزعة نفسه . فقد كان يجيب على أسئلة الكاهن وقت الأكليل أجوبة خطأ ، وتفلت من لسانه عبارات يعتبرها الناس في مثل تلك الظروف نذير شؤم للحياة الزوجية . وذلك لأنها دليل على أن العقل الكامن لايطابق الوجدان في أغراضه ومناحيه

وأفترق الزوجان بعد ولادة أول طفلة لهما فراق الأبد . وأخذ الناس بالتشهير ببيرون لسوء معاملته زوجته . وصار أكثرهم يتحامون لقاءه ، حتى هجر أنجلترا إلى القارة الأوربية ، وقضى معظم حياته بعد ذلك بعيداً عن بلاده

وقد كان بيرون فوق حدة شهواته ، لا يعير الأخلاق العامة قيمة . ومما يعزى إليه أنه عشق أخته . وقد كان يُظن أولاً أن قالة السوء هم الذين أذاعوا عنه هذه الفرقة . ولكن تبين من خطاباته التي نشرت حديثاً، أن التهمة ثابتة عليه ، لا وجه لنقضها . وفي أشعاره ما يوهم القارئ أنه يسوغ هذا العشق . وكان قد أفترق من أخته هذه وهو طفل . وبقي على هذا الفراق إلى سن الشباب ، حين ألتقى بها ، فوجد فيها

وجهاً أنور كالمصباح ، وقامة مديدة كأنها علم ، وذكاء يلتقي بذكائه . ثم أنس الأخوان أحدهما إلى الآخر ، وأشتعل الحب بينهما ، وأنجبا بطفل. ويقال أن هذا الحادث الأخير كان السبب الأصلي لفراق زوجته ، التي بقيت سنين وهي تكتم حب هذين الأخوين

وفي سنة ١٨١٥ كان في مدينة البندقية ، فألتقى بسيدة متزوجة تدعى تيريزا ، كان زوجها كونتاً من أشراف أيطاليا . وكانت هي في التاسعة عشرة ، بينما كان زوجها في الستين . ولم يكن وجهها يجري على النمط الأيطالي ، إذ كان أبيض شديد البياض ، وشعرها أصفر ذهبياً . وكانت سحنتها أشبه بأهل شمال أوروبا منها بأهل أيطاليا

وما هو أن عرفت الشاعر وجالسته مرات قليلة ، حتى رأت نفسها قد علقته ، ولم تعد تقدر على فراقه . فقد كانت قبلاً تمزح بالعشق ، أما الآن فقد شعرت أنها أمة قد أسترقها حب بيرون . فإذا نظرت إليه ، وتملت من طلعته ، شعرت كأن جسمها يتوهج بالرغبة فيه

وكان بيرون في ذلك الوقت قد جاوز الثلاثين ، وكان قد أعتاد الخمر والترف ، فظهرت عليه أعراض السمن والترهل ، وبدت عليه دلائل الفتور والخمول . وذهبت عن وجهه تلك المسحة الروحانية التي كان يفخر بها الشاعر قبلاً

وفرت تيريزا من زوجها ، وعاشت مع بيرون في بيت واحد ، ولم يفترقا بعد ذلك إلا عندما أراد بيرون أن يبدأ حياة جديدة في تحرير

اليونان من الأتراك . وأستفاد بيرون من عشرة تيريزا ، التي قطعته عن إدمان الخمر ، وأصلحت عاداته التي كان قد أفسدها الترف . ولم يكن بيرون يحبها أولا ، ولكنه عندما رأى إخلاصها وتعلقها به ، مع تلك السحنة الشمالية التي يحبها الانجليز ، تفتح لها قلبه وعشقها هو الآخر

وكان زوجها يحاول طوال الوقت أن يقتل بيرون ، فكان يكتري له الأوغاد لكي يغتالوه ، فكان بيرون لايسير إلا مدججاً بالسلاح

وقد كانت تيريزا تؤثر حبيبها على نفسها ، تحثه على النظم ، وتعمل لإذاعة شهرته . وتخلص له الخدمة والولاء ، وتمنعه من متابعة عاداته في الأنغماس والأستهتار . وربما كانت هي الوحيدة من النساء اللاتي عشقن الشاعر ، ولم ترج من عشقها اللذة والتمتع . فقد كانت تنظر في كل ما تفعل إلى مصلحته دون مصلحتها

قال أحد المترجمين بحياة بيرون : « لقد أصلحته ، ورفعته ، وأنتشلته من الحمأة . ووضعت على رأسه تاج الطهارة . ثم لما أستنقذت هذا القلب العظيم ، لم تعمد إلى إحتكاره لشخصها ، وإنما سخت وجادت به للإنسانية »

وعاشت بعده ٢٧ عاماً ، وماتت في سنة ١٨٧٣ . ونشرت كتاباً عنه، ضمنته ذكرياتها عن أيام الحب التي قضتها معه في أيطاليا . وبلغ من ولاءها له ، أن زارت وهي عجوز فانية ، بيت بيرون في أنجلترا ،

وأذرفت الدموع لذكرى حبيبها

ولا يذكر أسم بيرون دون أن يذكر أيضاً شيلي الشاعر ، ولايذكر الأثنان دون أن تذكر علاقتهما بالفيلسوف جودرين وبنتيه . فان جودرين هذا كان من دعاة الحرية الفكرية والتنظيم الأجتماعي . وكانت له بنتان، تتلألأن بالجمال والذكاء . وقد تزوجت إحداهما شيلي . أما الأخرى فقد عشقت بيرون . وكان الجميع يقضون وقتهم معاً ، سائحين أو مقيمين في أيطاليا . وبقوا على هذه الحال إلى أن غرق شيلي بعيد الساحل الأيطالي، فتبدد الشمل

مــــدام دوســتـايل

ليس في جميع ما ألفته مدام دوستايل شيء جدير بالأعجاب . وهي إنما تُقرأ الآن للقيمة التاريخية التي لمؤلفاتها ، من حيث أنها دليل نزعة فشت قبيل الثورة الفرنسية وبعيدها . وهذه النزعة تتلخص في الميل إلى رفع قيمة الحنان ، والنظر إلى شؤون العالم عن سبيله . ولم يكن الأدباء في عصر مدام دوستايل يكبرون قدرها ، وإنما كان يأتي إحترامها من العامة ، لأنها كانت متطرفة من أكثر العلوم والآداب . تعرف شيئاً يسيراً عن كل منها ، وتستطيع الكلام أو الكتابة عنها ، بحيث تسترعي إحترام العوام وأحتقار الخواص . ومما أذاع شهرتها ، أن نابليون خاصمها ، ونفاها من فرنسا . ونزول نابليون إلى مخاصمة إمرأة ، جدير بأن يرفعها بعض الرفعة . وكانت أيضاً أبنة نيكر وزير المالية في فرنسا ، وقد أشتهرت أمها بأنها وقت أن كانت في سويسرا ، عرفت المؤرخ الأنجليزي الشهير جيبون ، وعلقته ، وأوشكت أن تتزوج به

وقد قضت مدام دوستايل شبابها في باريس ، وأختلطت بعلية الفرنسيين . وكانت منذ طفولتها مجدة في الدرس ، تقرأ كل مايقع في

يديها ، وترغب في معرفة كل شيء . فكانت تدرس التاريخ الطبيعي ، كما تدرس الأدب . وتقرأ في الأقتصاد والقوانين ، كما تقرأ في التاريخ والفلسفة

وكان جميع الكبراء من رجال السياسة أو الأدب في فرنسا ، يرون نذر الثورة قبل وقوعها ويحتاطون لها . وكان نيكر مثرياً عظيماً ، فخشي على ثروته أن تضيع إذا هبت العاصفة ، وأزالت الأشراف عن إقطاعاتهم . فعقد الزواج لأبنته على البارون ستايل هولستين ، سفير أسوج في باريس ، وذلك لكي تحتمي بدولته فيبقى مالها

ولم تعش كثيراً مع البارون . فقد رزقت منه ولداً ، ولما حدثت الثورة إتضمت في إبتدائها إلى العامة ، تروج دعوتهم وتنادي بحقوقهم . فلما أفرط زعماها في إضطهاد الأشراف ، ومن خالفهم في الرأي ، عادت فصارت ملوكية . وأخذت تؤوي أعداء الثورة إلى السفارة الأسوجية ، معتمدة في ذلك على حرمة السفارات . وعرف رجال الثورة ما تفعل فهاجموها ، وأضطروها إلى الفرار من فرنسا ، حيث عاشت بقية أيامها بعيداً عنها

وكان نابليون يكرهها ، وقد أمر بنفيها خارج البلاد . ويحكى أن أبنها ، وكان يبلغ الخامسة عشر ، مثل أمام نابليون ، وتوسل إليه أن يأذن لأمه بالرجوع إلى فرنسا . فقال نابليون :

– إذا أذنت لأمك بأن تذهب إلى باريس ، فأني أضطر إلى سجنها

بعد شهرين في إحدى القلاع . ولست أرغب في أن أعاملها بمثل هذه المعاملة. فلتذهب أينما شاءت . فهذه أوروبا كلها مفتوحة الأبواب أمامها . ها كم رومية والبندقية وبطرسبورج . وإذا كانت تريد أن تؤلف عني مقالات القذف ، فلتذهب إلى انجلترا ، حيث لايكلفها هذا العمل شيئاً عظيماً . أما في باريس ، فإنها تكون قريبة منا أكثر من اللازم

وقد أحبت مدام دوستايل جملة رجال غير زوجها ، الذي لم تحبه قط ، وإنما تزوجت به مراعاة للمصلحة ليس غير . فقد عرفت هنري كونستان ، السياسي الأديب ، وعشقته . وتبادل الأثنان الحب ، وإن كان حظها منه أكثر من حظه . فقد كانت هي قصيرة ممتلئة جاحظة العينين ، فكان محبوها ، على حد قولها ، يحبونها أقل مما تحبهم . وعندما نفى نابليون هنري كونستان سنة ١٨٠٢ ، ألتقت به في ألمانيا وعاشا معاً سنوات طويلة

وليس هناك ما يدل على أنها كانت تخلص الحب لجميع من أحبوها ، فقد كانت تنفضهم من يديها واحداً بعد آخر .ففي سنة ١٨١١ مثلا ، كانت تبلغ الخامسة والأربعين ، فعرفت شاباً إيطالياً في الثالثة والعشرين من عمره ، يدعى روكا . فتزوجت به ، وأشترطت عليه أن يكون الزواج سراً ، وأن لاتحمل أسمه ، وذلك ضناً بأسمها الذي شاع في أوروبا . وقد ساء حظها في هذا الشاب ، إذ أصيب بالصمم بعد الزواج بمدة قليلة

وخلاصة القول أن مدام دوستايل لم تفلح كل الفلاح ، لا في الحب ولا في الأدب . لأنها كانت تطمع في عمل كل شيء ، ومعرفة كل شيء . وكانت تسوم نفسها من الجهد ما لاقبل لها به . فقد كانت لا تنام إلا بضع ساعات في الليل ، وتقضي طول النهار في الكتابة . فكتبت شيئاً كثيراً ، دون أن تحسن أو تجيد في بعضه ، حتى لقد قيل أن وصيفتها كانت تسرح شعرها ، وهي لاتكف طول وقت التسريح عن الكتابة . وأحبت عدداً من الرجال دون أن تخلص الأخلاص كله لأحدهم ، فكان حبها على الدوام أشبه شيء بنزعة من نزعات الشهوة ، تهيج ثم تخمد

ولعل القطعة التالية التي كتبتها عن شقاوة الزواج من أحسن ما كتبت في جميع ما ألفت من الكتب ، قالت :

« في شقاوة الزواج نوع من المحنة ، يعدو طور جميع الآلام في هذا العالم . فإن كيان المرأة يتوقف على الرباط الزوجي . والوحدة التي تعيش فيها المرأة الشقية في زواجها ، تجالد القدر وحدها ، وتحمل إلى القبر وحيدة ، بلا رفيق يودعها أو يأسف عليها ، هي وحدة دونها وحدة السائح في صحارى جزيرة العرب . وعندما تشعر المرأة بأن شبابها قد أنفق وذهب ضياعاً لافائدة فيه ، وأن هذه الأشعة الأولى لن ينعكس منها شيء في نهاية الحياة ، وعندما تشعر بأنه ليس في ظلام الغسق ما يذكرها بضوء الفجر ، عندئذ تثور النفس ، وتشعر المرأة أنها قد حرمت من عطايا الله على هذه الأرض »

وربما كانت بلاغة هذه الكلمة راجعة إلى إحساسها الشخصي ، فأنها هي نفسها هذه المرأة

أهواء چـورچ صاند

چورج صاند أسم مستعار ، لأديبة شهيرة

لم يكن لچورج صاند هوى واحد ، وإنما كانت لها أهواء . تقسم الحب قلبها ، وتتنقل من خليل مملول ، إلى آخر طريف محبوب . لاتمضي عليه برهة ، حتى تصير طرافته سآمة وحبه قلى . وكان لها قدم راسخة في الكتـابة ، وبخاصة في الفن القصصي ، الذي كانت تبذ فيه ڤيكتور هيجو . فقد كان هيجو لغرامه بالصناعة اللفظية ، وتيهه بنفسه ، يميل إلى الضخامة والأبهة في وصف أشخاص قصصه . فإذا وصف شقياً ، بالغ في شقائه ، حتى يخرج عن الصورة المألوفة للشقاء . أما چورج صاند فكانت كاتبة ملهمة ، ترسم الناس كما هم ، وتخطط أخلاقهم تخطيطاً صحيحاً . فإذا قرأ الأنسان إحدى قصصها ، شعر أنه في وسط أناس حقيقيين ، يقرأ قلوبهم ، وتطالعه سرائرهم في أحاديثهم وسلوكهم

ولدت چورج صاند سنة ١٨٠٤ ، وكان أسمها أورور . وكان أبوها ينتمي إلى أسرة شريفة قديمة ، في حين أن أمها كانت من العامة . ولذلك لم تعش أورور كثيراً مع والدتها . فإن جدتها الشريفة أبت أن

تؤوي هذه المرأة العامية إلى بيتها . ولكن الجدة عنيت أكبر عناية بتربية أورور ، فعينت لها معلماً خاصاً ، ثم أرسلتها إلى مدرسة ملحقة بأحد الأديار في باريس ، بقيت فيها مدة طويلة ، أتقنت فيها اللغة الفرنسية، وأنكبت على قراءة آدابها القديمة والحديثة

ونشأت أورور على أذواق غريبة ، قلما تنشأ عليها الفتيات . فقد تخلقت بأخلاق الرجال ، تلبس لباسهم ، وتدخن مقادير هائلة من التبغ . وكان لها أخ ، رزق به أبوها عن طريق غير شرعي ، تعلمت منه ركوب الخيل كما يركبها الرجال ، حتى لهجت الألسنة بإنتقادها

وماتت جدتها سنة ١٨٢١ ، وأوصت بترك جميع أموالها لها . وكانت تقدر بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه ، فرغب في زواجها مزارع ، سليل بيت شريف قديم ، قريب من مدينتها نوهان في أقليم أندر . فتزوجت منه في سنة ١٨٢٢ زواج المصلحة لا الحب ، ورزقت منه بعدة أولاد . ولكنها سئمت العيشة الريفية ، ولم تكن ترى في زوجها شيئاً من رقة الطباع ، وذكاء القريحة ، وتنبه الذهن . وهي صفات كان لها منها حظ كبير في نفسها . وكانت هي في حديثها تميل إلى الفكاهة والمداعبة ، بينما كان هو يكره ذلك . فلم تتفق رقتها وجفوته ، حتى لقد حدث بينهما مرة جدال ، أنتهى أن عمد إلى ضربها ، فلكمها على وجهها بقبضة يده جملة لكمات ، كانت القاضية على علاقتهما الزوجية

وأرتضت على أن تترك أولادها عنده ، وترحل هي إلى باريس مع

أبنتها فقط ، وتترك له ربع جميع أملاكها ، لاتأخذ منه سوى ٦٠ جنيهاً في العام

وعندما ذهبت إلى باريس ، ذهبت إلى جريدة « الفيجارو» فأشتغلت فيها بأجر بسيط . ولم يمض عليها زمن كبير ، حتى عرفت الحي اللاتيني، حيث وطن الأدباء . فنفضت عن نفسها جميع اللياقات التي يحتمها العرف على النساء ، ولبست لباس الرجال ، وتخلقت بأخلاقهم ، تغشى القهوات والحانات ، وتشرب النبيذ الحار ، وتدخن السيجار الكبير

وعرفت في ذلك الوقت صحفياً صغيراً ، يقل عنها في العمر نحو سبع سنوات ، جمعت آصرة الصحافة بينهما فتآخيا ، وأنتهت الزمالة بصداقة . وكان في هذا الصحفي ، الذي يدعى جول ساندو ، فتوة وصباحة تغري بالحب . فما هو أن جثا أمامها مرة ، يطلب إليها أن تمنحه قلبها ، حتى لبت طلبته ، وقام في نفسها له هوى ربما كان أول أهوائها . فقد أستسلمت للحب ، وأنتشت به ، وألتذته ، حتى كتبت في ذلك تقول:

« أني أود أن أشعرك بهذا الأحساس - إحساس الفرح بالحياة وقوتها- التي أشعر بها في عروقي . الحياة ، أجل الحياة ، ما أحلاها وما أطيبها ، على الرغم مما فيها من عنت ، وأزواج ، وديون ، وأقارب، وقولة سوء ، وآلام ، ومكابدات . هذه الحياة مسكرة . وهذا الحب . أن

أحب ، وأن أحب ، هذه هي السعادة . هذه هي السماوات »

وقد وضعا بالأشتراك قصة تدعى : روزوبلانش . وجعلا أسم مؤلفها جول صاند . ونجحت القصة نجاحاً شجعها على أحتراف الفن القصصي . فصارت بعد ذلك تؤلف وحدها ، وجعلت أسمها في التأليف جورج صاند. ووضعت قصة أخرى لفتت نظر النقاد والأدباء ، ونالت إطراءهم ، حتى أقترحت عليها مجلة العالمين أن تعطيها في العام ١٦٠ جنيهاً ، لكي تخصها بمقالاتها وقصصها . وعرضت عليها مجلات أخرى أن تكتب لها

وكان أهم ما يجذب النظر إلى قصصها ، أنها كانت تدعو إلى «الحب الطليق » وتدافع عنه . وقد أُثرت عنها عبارة ، قالتها عقب إنفصالها من زوجها ، وهي : « ليس هناك ما يسوغ للإنسان أن يمتلك نفس أنسان آخر ، كما ليس له أن يمتلك شخص العبد »

وكانت تقول : إن الرابطة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون مقدسة ، إذا كان الحب قد قدسها . ومن الحكم التي أشتهرت عنها قولها في التمييز بين الحب والشهوة : « الحب يعطي ، أما الشهوة فتأخذ »

وكانت في ذلك الوقت في السابعة والعشرين من عمرها . ولم تكن جميلة ، وإنما كان فيها شيء من الملاحة والخفة . فقد كانت رُبعة ، تميل إلى النحافة ، وكان بعينيها شيء من الجحوظ . وكان في حركاتها رشاقة تفتن الناظر . فيها شيء من الجرأة والخوف معاً . فإذا تكلمت

تفتحت ، فيسقط بذلك حاجز الخجل بينها وبين من يخاطبها لأول تعارف. فإذا جُودلت وأستثيرت تدفقت ، فتنكشف عندئذ شخصيتها عن طبيعة حافلة بالكنوز ، تائقة إلى بذلها والسخاء بها

وأنتهت صلتها بجول ساندو بحادثة غريبة . فقد سافرت إلى زوجها لكي ترى أولادها ، وعادت دون أن تؤذنه قبلاً بعودتها . ولعل غرضها كان أن تفاجئه مفاجأة الحبيبين . ولكنها عندما دخلت عليه وجدته يعانق فتاة. فأنتهى هذا الهوى الأول بقطيعة نهائية

ووقعت خيانة حبيبها في نفسها أشد وقع ، حتى شعرت بعدها كأن عواطفها قد ماتت . فصارت تتجنب الرجال ، وتتحامى لقاءهم . وتعرفت إلى فتاة ممثلة تدعى ماري دورفال ، كانت ترافقها وتلازمها حتى ذهب عنها أثر تلك الصدمة

وبعد سنوات من هذه الحادثة ، عرفت الكاتب الشاعر القصصي ألفرد دو موسيه . وكان غاية في الجمال والذكاء . وكانت چورچ صاند أكبر منه بسبع سنوات حين ألتقت به . وتعلق كل منهما بالآخر . وذهبا إلى إحدى ضواحي باريس لكي يقضيا – كما قالت چورچ صاند – شهر العسل ، دون زواج . وبعد ذلك عقدا نيتهما على رحلة طويلة في إيطاليا ، وسافرا إلى البندقية ، حيث أستأجرا مسكناً فيها ، وأقاما مدة قصيرة ، أنتهت بقطيعة عاجلة . وكان سبب ذلك أن « دو موسيه » أصيب بمرض أقعده ، ولم يكن حب صاند له إلا حب الشهوة . فقد كان

شاباً في الثالثة والعشرين من عمره ، وكانت هي في الثلاثين . فلما مرض سئمته . وقد مرضّته بمعونة طبيب إيطالي وسيم يدعى باجالو ، شفاه من مرضه ، وشفاها هي من حب دو موسيه

وعلقت هذا الطبيب ، فهجرت حبيبها السابق في البندقية ، يعض أصابع الندم ، وسافرت هي مع هذا الطبيب الإيطالي إلى باريس . وشاعت حكاية حبها مع ألفرد دي موسيه ، والمسلك السافل الذي سلكته معه ، فصار يحذرها كل أحد ، ويتحامى مراوداتها جميع الأدباء . وقد حاولت أن تصيد قلب فكتور هيجو فأبى ، وحاولت أن تفعل مثل ذلك بدوماس الكبير ، فقهقه في وجهها . ولم تنل شيئاً من بلزاك

وحاولت أن تصلح ما بينها وبين ألفرد دو موسيه بعد ذلك ، حتى جزّت شعرها ، وأعطته له علامة ولائها وأمانتها . ولكنه منذ حادثة البندقية لم يكن ينظر إليها إلا بالتوجس والحذر

ونالت مكانة كبيرة في الأدب ، حتى ربحت منه نحو خمسين ألف جنيه . وقد كان هذا مبلغاً في عصرها . وعندما أوشكت أن تشعر أن سوقها في الحب قد كسدت ، نالت حظوة في عيني الموسيقي العظيم شوبان ، فعاشت معه نحو ثماني سنوات . وقد زار كلاهما في بدء غرامهما جزيرة ميورقة ، فأصيب شوبان بسعال ، حتى كتبت عنه جورج صاند تقول : « أنه يسعل برشاقة عجيبة ».وقالت أيضاً « أنه كثير التقلب ، وليس فيه شيء ثابت لايريم عنه ، سوى سعاله »

وقد كُتبت مجلدات عن علاقتهما . وكان لجورج صاند نفسها تصيب كبير في ما كتب ، أعترفت فيه بأشياء وتفصيلات كثيرة عن علاقتهما بما عهد الناس فيها من الصراحة

وأنقطعت علاقتهما في سنة ١٨٤٧ . وقال شوبان عنها في ذلك الوقت : « لم ألعن أحداً قط ، ولكني سئمت الحياة حتى أراني أكاد ألعنها ».ومات شوبان في سنة ١٨٤٩

وبموته ، تغيرت جورج صاند ، فهدأت طبيعتها ، وتحول نظرها عن متجهه الأول . فقد صارت من حيث العواطف كالبركان الميت ، في حين أن ذكاءها تنبه . فأخذت تكتب قصصاً ساذجة عن الحياة الريفية ، وقصصاً أخرى للأطفال غاية في الأتقان والبراعة . وماتت سنة ١٨٧٦ ، فكان لموتها دوي عظيم في جميع أندية الأدب في أوروبا

ويحسن بنا أن نختم مقالنا هذا بكلمة قالها عنها بلزاك ، وهو أستاذ في أستكناه النفوس ، قال :

« كانت أنثى تعيش عيشة الأعزب من الرجال . وكانت أديبة سخية، ولية ، طاهرة . وكانت صفاتها السائدة صفات الرجل ، وعلى هذا يجب أن لانتظر إليها نظرنا إلى النساء . وكانت أماً طيبة ، يعبدها أولادها . أما من حيث الآداب ، فقد كانت تنظر إليها نظر الشاب في سن العشرين . وذلك لأنها كانت في سويداء قلبها طاهرة ، بل كانت أكثر

من ذلك – كانت حيية خجولاً . لم تكن هذه الفوضى البادية على خلقها إلا شيئاً ظاهراً على السطح فقط، وما نزقاتها وطيشاتها إلا عنوان المجد في أعين أولئك الذين لهم نفوس شريفة »

وهذا حكم غريب . ولكن بلزاك كان يعرفها أكثر مما يعرفها عامة الناس . وكان ذا بصيرة نافذة إلى النفوس والقلوب ، يعرف مستكناتها، ويقرأ ما تضمره مما تظهره

كارليل وزوجته

كان كارليل من رجال الأدب الأنجليزي في القرن التاسع عشر . وكان يعنى بإنتقاء الألفاظ ، يتخير منها ذوات الرنين الفخم والصوت الضخم، وكان يبعد في هذا حتى يسف ويبهرج . ولكنه كان مع ذلك يفكر تفكير العبقري ، ويستشف الحقائق من أستار الأوهام ، ويخلص في تفكيره إخلاص العابد في صلاته . وهو أول أديب أنجليزي عني بالأدب الألماني عناية جدية ، وعرفه إلى أمته . وقد ألف جملة كتب خالدة ، أهمها كتاب الثورة الفرنسية ، وكتاب الأبطال ، وفريدريك ملك بروسيا

وتؤثر عنه حكم وأقوال بارعة ، هي مضرب الأمثال الآن عند الكتاب، وباعثة التفكير عند جملة القراء . فمن ذلك قوله :

« إنما الأنسان الحي أحجية ظاهرة . فهو يمشي بين أبديتين . ولو لم تكن عمياناً كالخلد ، لقدرنا إنسانيتنا بالخلود ، ولما صارت قيمة مركز الشخص ونفوذه وما إليهما ، إلا كل شيء . فإذا قلت أنك أنسان ، فقد قلت كل شيء »

وقوله : « أليست حقيقة الفكر أنه وحي ؟ »

وقوله : « إذا فكرت وأتضحت الفكرة ، هل تجد شيئاً أعجب من شيء ؟. إني أنا لم أر أحداً قام من بين الموتى ، ولكني رأيت آلافاً قاموا من العدم . وليست بي قوة تحملني طائراً إلى الشمس ، ولكن لي من القوة ما أرفع به ذراعيّ ، وهذا العمل ليس أقل غرابة من ذلك »

نشأ كارليل في عائلة أمية في أسكوتلانده ، وقد أنتظم في سلك طلبة الدين بنية أن يصير راعياً لإحدى الكنائس ، ولكنه لم يسر إلى نصف الطريق حتى عرف من سريرة نفسه أنه لم يخلق لهذا العمل . فتحول عنه إلى الأدب ، وسار إلى إدنبره حيث قرر أن يكتب ليعيش ، وأن يعيش ليكتب

وعرف وهو في إدنبره فتاة تدعى مس ولش ، كانت متطرفة من بعض العلوم والآداب ، تغشى أندية الأدباء ، وتكثر من المناقشة والبحث . وكانت إلى ذلك جميلة مشوقة . فلما تعارف الأثنان ، رغب كل منهما في الزواج بالآخر ، فقد رأت فيه الفتاة أماثر العبقرية والشهرة المستقبلة، ورأى هو فيها فتاة ذكية جميلة . فأتفقا على الأقتران

وتم زواجهما سنة ١٨٢٦ ، وكان عمرها ٢٦ عاماً . أما عمره فكان ٣٢ عاماً . وكان كلاهما يحب الآخر ، إذ لم يكن كارليل يطمع في شيء من هذا الزواج إذا لم يكن يحبها . ولكن من الناس من يتهم مس ولش بأنها تزوجته وهي لاتحبه ، وإنما كانت ترمي إلى إكتساب الشهرة بأقتران أسمها إلى أسم أديب كبير لابد أن سيشتهر قريباً . ولكن يُرَد على

هؤلاء بأنها تزوجته وهو في فاقة بالغة ، بحيث أنها ضحت براحتها ، وعانت معه صنوف الآلام ، وهي تخدمه خدمة العبيد عدة سنين . فإن كانت قد أدركت بذكائها أنه سيشتهر، وأنها ستنتفع من هذه الشهرة ، فهي لابد أيضاً قد أدركت أن هذه الشهرة بعيدة ، وربما لاتتحقق مطلقاً

وكلا الفرضين جائز ، وإنما دعانا إلى إفتراضهما أن زوجة كارليل عانت في زواجها آلاما عدة ، وأتهم زوجها بالقسوة والفظاظة والخروج عن طور المروءة . فإن كانت قد تزوجته عن حب وإخلاص ، فعدم إتفاقهما بعد ذلك من صنوف الصدف ، التي قد يكون فيها كارليل مسئولاً أو غير مسئول . أما إذا كانت قد تزوجت به وهي لا تحبه ، فقد وقعت تبعة شقائهما عن كارليل

وعاش الزوجان في بدء زواجهما في كوخ منفرد في نجد مقشعر شمال إدنبره ، لا ينبت فيه إلا الضئيل من النباتات . وكانا وحيدين ، لايؤنسهما أنيس سوى أخ لكارليل كان قد أبتنى كوخاً قريباً من كوخهما . وأخذت الوحدة تفعل أفاعيلها في أعصاب الزوجة . فقد كانت تقوم بأداء جميع ما يحتاج إليه البيت ، ولم يكن كارليل ممن يرتاحون إلى مؤانسة الزوجة ، وبخاصة إذا كانت هذه المؤانسة تنطوي على جدال علمي أو أدبي . لأن كل لذته في ذلك الوقت ، بل كل عمله . كان ينحصر في القراءة والكتابة والتفكير . وهذه الأعمال جميعها تحتاج إلى الوحدة

وأخذت زوجته لكي تهدىء أعصابها . تتعود معاطاة الشاي والتبغ ثم الأفيون . ولكن هذه المخدرات لم تكن إلا لتزيد التوتر في أعصابها . فكانت حياتها تتراوح بين توتر قد يكون مصحوباً بتهيج ، وبين إعياء قد يبلغ حد الخور والمرض

وأنتقلا بعد ست سنوات من كوخهما إلى لندن ، وكان يزورهما لورد أشبرتون وزوجته . فقام في ذهن زوجة كارليل أن زوجها يعشق زوجة هذا اللورد ، وصارت الغيرة تأكل في صدرها كالسوس ، حتى كانت تقضي الليالي وهي مسهدة لفرط إهتمامها لهذا الأمر . والأغلب أن هذه الغيرة لم تكن سوى نتيجة تهيجها وضعف أعصابها ، لأن كارليل كان على خلق عظيم . وكان اللورد أشبرتون يزوره ويستزيره ، دون أن تدخل إلى قلبه أقل ريبة

وماتت زوجة كارليل قبل وفاة زوجها بنحو ١٥ عاماً . ويقال أن كارليل حزن عليها حزناً عظيماً ، وتذكر ما قاسته معه ، فأذن للمؤرخ فرود أن يكتب تاريخ حياتها . يجمعه من الخطابات المتفرقة المرسلة إليها منه أو من غيره ، والمرسلة منها إليه أو لغيره من الناس . وقد فعل ذلك فرود وأستخرج من هذه المجموعة أن كارليل أساء معاملتها

وهناك من يعزو آلام هذه الزوجة الشقية إلى أنها كانت تشتهي أن يولد لها ولد . فلما لم تنل مأربها من ذلك ، تحولت هذه الشهوة المحبوسة ، وأنطلقت في ميادين أخرى . فصارت تكايد زوجها وهو

يكايدها ، حتى ساءت العشرة ، وفسدت بينهما الزوجية

ولكن من الخطابات التي أرسلتها إلى زوجها ، ننقل هنا الخطاب التالي . وهو لا يقرأه رجل إلا ويشعر بأن فيه من التعبيرات ما يدحض هذه التهمة :

« حبيبي – لقد قلت أنك ستسأم ، وإني أرجو في قلبي أنك الآن تسأم . فما أحلى أن أشفيك من هذا السأم بالقبلات عندما أعود . فستأخذني ، وتسمع مني كل صغيرة جرت لي ، وسيخفق قلبك عندما تعرف مقدار أشتياقي لكي أرجع إليك . يا أعز أعزائي ، ويا أحب أحبائي !. ليباركك الله . إني أفكر فيك في كل ساعة . في كل لحظة . وإني أحبك ، وأعجب بك كأعجابي بأعظم شيء . ليتني الآن عندك ، فأطوقك بذراعي ، وأجعلك تنام نوماً هنيئاً ما شعرت بأرق منه منذ سافرت . لك المساء الخير . أذكرني في أحلامك »

وخلاصة القول وأرجحه ، أن كارليل لم يسيء إلى زوجته ، وإنما كانت ظروف صناعته تحبب إليه الوحدة . وهذا شر ما تكرهه المرأة في زوجها . ولم يرزقا الأطفال ، وهم سلوى الأم وعزاؤها وقت فتور الحب . ثم كانت عادة تعاطي المخدرات ، وهي وحدها تكفي لهدم أقوى الأعصاب ، فكانت هذه الظروف مجتمعة علة شقاء هذين الزوجين وسبباً في ذهاب حبهما السابق

ڤيكتور هيجو ومدام درويه

الأدباء صنفان، أحدهما يرمي إلى غاية فلسفية ، أو إلى مثل أعلى، يتحرى في أكثر ما يكتب أن يبلغهما ، ويحث غيره على بلوغهما . فهو يعَد نفسه مركزاً للكون ، قد تمركزت فيه مقاصده العليا . فيرى من ذلك أن واجبه الحتم يقضي عليه أن يحقق هذه المقاصد ، لأنها ليست مقاصده فحسب ، بَل هي مقاصد الكون أيضاً . فهذا هو رجل الفن

وثم صنف آخر ليس له مثل أعلى ولا غاية فلسفية . تعنيه الصيغة ، فلا يبالي بالغاية . قصاراه أن يترنم ويشدو ، فإذا كتب ، ذهب جهده في رصف الألفاظ وتنسيقها ، وتنميق عبارته وتزيينها . فهذا هو رجل الصنعة . أدبه أدب الفسيفساء والدنتله

وكان ڤيكتور هيجو من هذا الصنف الثاني ، يؤلف القصائد والقصص والدرامات ، فيصوغها أحسن صياغة . يجيد حبك العبارة ، ويأتي بالعجب في تشبيهاته وأستعاراته ومجازاته . ولكنه كان في جميع ما كتب خلواً من الغاية الفلسفية . والناس في كل مكان ، وبخاصة إذا كانت عواطفهم تسود عقولهم ، تفتنهم الصنعة في الكتابة.

لأنها نوع من أنواع الشدو والترنم . فللأسلوب الحسن المحبوك المزين ، إيقاعات تشبه إيقاعات الموسيقى ، تبعث في النفس السرور . فكان ڤيكتور هيجو محبوباً لهذا السبب عند العامة ، مشهوراً بينهم . وقد عاش مدة طويلة ، وأشتغل بالسياسة ، فصارت حياته ومؤلفاته رمزاً ودليلاً على فترة طويلة من الزمن في تاريخ فرنسا . وهذا وحده هو ما سيضمن بقاء مؤلفاته وكتاباته ، وأعتبارها سنداً من أسانيد تاريخ عصره

وكان مما يتسم به هيجو ، فوق إتقانة الصنعة وتماديه فيها ، وإغراقه في الأنكباب على رصف الألفاظ ، أنه كان لايدري معنى التكاهة . فكان لذلك لا يلحظ السخف الذي يحدثه الأغراق في الصنعة . وكان أيضاً على شيء كبير من الغرور والتيه ، فلا يأبه للنقد

حدث مرة أنه وضع قصة تدعى « الرجل الذي يضحك » وجعل أحد أفرادها من نبلاء الانجليز ، ودعاه بأسم توم چم چاك . وكان هذا الأسم أشبه بالمهرجين منه بالنبلاء . فأنتقد عليه ذلك أحد الأنجليز في لطف وكياسة . فما كان من هيجو إلا أن شمخ بأنفه منكراً عليه ما لاحظه ، مدعياً أنه يدرك من الذوق في التسمية عند الأنجليز أكثر من هذا الأنجليزي

وفي كتاب آخر أخطأ في أسم الموسيقى الأسكوتلاندية المعروفة ، فكتبه Bugpipes . فلاحظ ذلك عليه أحد الأسكوتلانديين ، وطلب إليه

تحرير اللفظة بأن يجعل الحرف الثاني a بدلا من u . فأبى وتعنت وكابر ، بأن اللفظة يجب أن تكون كذلك

كان هذا التيه هو الذي جعله ينتمي في الأصل إلى الجمهوريين ، لأنه لم يكن يطيق أن يكون في فرنسا إمبراطور ، لا يقف وإياه على مستوى واحد . وكان ، مع أنه جمهوري في المبدأ ، يتمحل الحكايات والأباطيل لكي يثبت أنه من بيت نبيل قديم . وذلك مع أن جده كان نجاراً . وكانت إحدى عماته متزوجة من خباز . وعمة أخرى متزوجة من حلاق . وأخرى كانت خياطة . ولو كان هيجو ديموقراطياً حقيقياً ، لأفتخر بحقيقة نسبه. ولكنه - كما قلنا - لم تكن له غاية فلسفية في هذا العالم ، وإنما كان يبغي الشهرة برصف الألفاظ والتدجيل على العامة

ولد في سنة ١٨٠٢ ، وشغف في صباه بالشعر ، فنال عدة جوائز عليه . وذكرته الندوة الفرنسية في سنة ١٨١٧ . ولما بلغ العشرين ، وقع في هوى فتاة تدعى إديل فوشيه ، كانت حوراء دعجاء ، على رأسها إكليل جثل من الشعر الأسود . وكان بها حياء يغري ، ورشاقة تفتن من ينظر إلى حركاتها . فتعرف ڤيكتور هيجو إلى أبويها ، وصار يكثر من زيارتهما ، حتى أدركت أم الفتاة أنه عالق بأبنتها . ولم يكن للشاعر دخل ثابت تعتمد عليه عائلة في المعيشة ، فلما أقترح على الأبوين أن يتزوج أبنتهما رفضا . وأعتلا عليه بصغر سن الفتاة ، وأنها لا تملك شيئاً ، وأنه ليس له صناعة . وحدث أن الملك لويس الثامن عشر قرأ

بعض قصائد ڤيكتور هيجو ، فأعجب بها ، ورتب له معاشاً سنوياً قدره ٤٠ جنيهاً . وكان قد باع ديوانه الأول في تلك السنة ، فربح منه ٣٠ جنيهاً . ففرح بذلك ، وذهب إلى أهل إديل ، وأخذ يلح في زواجه الفتاة، ويحتج بأنه لابد ناجح في الأدب ، وأن معاش الملك باكورة دخله العظيم الذي يتوقعه من رواج أدبه

وتزوج من إديل ، وعاشا طويلاً . ورزقا أولاداً ، فكان بيتهم مثال البيت السعيد . ونجح ڤيكتور هيجو كما توقع ، وذاع أسمه وكبر دخله

وحدث أنه كان ممن يترددون على صالون هيجو أديب معروف يدعى «سانت بوف » كان قد مدح بعض كتب هيجو . فأحبه الشاعر ، وصار يقبل عليه ، ويفتح له صدره ، ويبسط له مائدته . فكان يقصد إلى داره كل يوم ، وقد لايجد الشاعر هناك فيجالس زوجته ، ويأخذان في أطراف الأحاديث وشجونها

هذا هو الواقع الذي كان يعرفه كل إنسان يتردد على دار ڤيكتور هيجو . ولكن سانت بوف كان سافلاً ، بل كان غاية ونهاية في السفالة. فقد نشر كتاباً قال فيه أنه عشق مدام هيجو . ولو صح هذا العشق ، لكان أحرى به أن يخفيه عن الناس ، ضناً بكرامة هذه المرأة أن تبتذل في الأفواه . وبخاصة إذا كان يحبها . ولكن من الأسرار ما يحزب صاحبه على البوح ، ولا يفتأ يعنته حتى يفشيه

وهنا جدير بنا أن نقف هنيهة ، وننظر في تلك الطبيعة اللاتينية التي

يتسم بها أهل جنوب أوروبا ، وتقابلها بطبيعة الأمم الجرمانية الأنجليزية التي يتسم بها أهل شمال أوروبا . فأدباء اللاتين يتفتحون ويصارحون القراء ، ويكشفون عن قلوبهم ، لايعتدون في ذلك بأي أعتبار أدبي . وهذا دأبهم من قديم ومن حديث . فأن إعترافات « سان أوغسطين » و « چان چاك روسو » تدل على ذلك . كما تدل أيضاً عليه كتابات «ألفرد دو موسيه » و « چورچ صاند ». وهذا الأديب الأيطالي «دانونتسيو » الذي باح بحبه للممثلة المعروفة إليانوره ذوز . وهذا بخلاف ما يحصل في الأمم الشمالية ، حيث الطبائع أميل إلى الكتم ، وأقدر على حفظ السر ، وأكره ماتكون للفضائح ، يظهر عليها الجمهور وتقف عليها العامة . فقد مات « بارنل » أسى وكمداً ، عندما ذاعت عنه قصة غرامه بإحدى السيدات . ومات « أوسكار وايلد » غماً وجزعاً عندما أشتهرت عنه قضية فسق

ولو كان سانت بوف إنجليزياً ووضع مثل هذا الكتاب ، لما لقي من الجمهور سوى البصق في وجهه ، ومن المحاكم سوى الحبس السريع

فلما تلطخت مدام هيجو بهذا العار ، سقطت من عين زوجها . ولم يكن هناك ما يدل على أن القصة التي ذكرها سانت بوف صادقة ، ولكن الجمهور صدقها . وكان هذا كافياً لان يغض من كرامة ڤيكتور هيجو ويقرح في صدره . وقد كظم غيرته ، وأغمض عينه على القذى ، وعاش مع زوجته محافظاً على جميع الظواهر . والحقيقة أن تيهه وغروره ،

متعاه من أن يعترف بوقوع هذه الأهانة أمام الجمهور

وحدث في سنة ١٨٣٣ ، بعد هذه الحادثة ، أن زارته في أحد الأيام فتاة من المشتغلات بالتمثيل تدعى « مدام درويه » وطلبت إليه أن يخصها بتمثيل أحد أشخاص درامته ، التي كان على وشك أن يقدمها لأحد التياترات . وكانت هذه الفتاة حاصلة على نصيب كبير من الجمال . رآها تيوفيل جوتيه الكاتب المعروف ، فوصفها وصف المدله بجمالها ، في قطعة نثرية كأنها مقطوعة من الشعر . وكانت في بدء أمرها فقيرة ، فعاشت مدة مع براديية المثال ، ثم أعرض عنها وجفاها . فلجأت إلى نبيل روسي ، وعاشت معه دهراً . ثم دخلت التمثيل ، وعرفت عن سبيله ڤيكتور هيجو

ولما تركته ، وحصلت منه على وعد بتخصيص جزء من الدرامة لها ، كانت قد وقعت في نفسه . فما هو أن برحته ، حتى قام يرد إليها الزيارة. وصارا بعد ذلك يتزاوران ، وأنبسط كل منهما إلى الآخر وأقبل عليه . وكانت مدام هيجو ترى ذلك فلا تبدي تذمراً أو إنتقاداً ، لما تعلم من ذيوع قصتها مع سانت بوف . وكان هيجو نفسه يستغل هذه القصة ، لكي يسوغ لنفسه خيانة الأمانة الزوجية وعشق مدام درويه

وتمادى العشق بينهما ، حتى أهملت مدام درويه صناعتها في التمثيل . وعندما نفي هيجو من فرنسا بأمر نابوليون الثالث ، ذهبت معه إلى جزيرة جرنزي . وكانت مدام هيجو تزورها ، وتدعوها إلى بيتها ، وتتجاهل أمام الناس كل ما بينها وبين زوجها . ولابد أنها كانت

تعاني آلاماً عظيمة من هذه الإحساسات المحتشدة في صدرها : حبها لزوجها ، وغيرتها من هذه المرأة ، وهوان نفسها أمام ما ذاع عنها عن علاقتها بسانت بوف

ويحكى أن بعضهم زار دار هيجو في مساء أحد الأيام في جرنزي ، فلما دخل إلى منظرته ، وجد زوجته مضطجعة وهي تعاني أشد الآلام . فسألها : أين زوجها وأولاده ؟. فقالت :

- ذهبوا كلهم إلى دار مدام درويه لكي يقضوا المساء هناك في إنبساط وتمتع . أذهب أنت أيضاً ، لأنك لن تجد هنا مايسرك

وهكذا عاشت مدام هيجو ٣٣ عاماً ، وهي تعرف أن المكان الأول ليس لها في قلب زوجها . وكانت في خلالها مكسورة الخاطر مقهورة العواطف . فلو كان ما ذكره سانت بوف عن حبها حقيقياً ، فقد لاقت جزاء خيانتها ، بل أكثر مما تستحق . وإن كان ما ذكره كاذباً ، فهو جدير باللعنة في كل زمان ، وهي جديرة بالشفقة من كل إنسان

أما مدام درويه ، فقد عاشت حتى بلغت الثمانين ، وماتت قبيل وفاة ڤيكتور هيجو بمدة قصيرة . ودفنت في باريس ، بعد أن حملت جنازتها في مشهد فخم لايدري الأنسان أية لطائف كان يتفاكه بها المشيعون لجنازتها ، وهم يسيرون وراء هيجو وكلهم يعرف قصة عشقهما

ولكن هذا هو المزاج اللاتيني ، يتغاضى عن مثل هذه الخطيئات، بل يذكرها كأنها شيء مألوف لاغبار عليه

بلزاك وإفيلينا هانسكا

ليس في القرن التاسع عشر من يفوق بلزاك في فرنسا في الفن القصصي . وهذه الحقيقة لايعترف بها إلا القليل من الفرنسيين ، ولكن أدباء العالم الأوروبي الذين يقرنون الأدب الفرنسي إلى غيره من الآداب، يعرفون هذه الحقيقة ، ويقرون لبلزاك بالتفوق والتبريز

ونظن أن هناك معياراً نستطيع أن نعاير به الفن القصصي في الوقت الحاضر ، وهو القصص الروسية . فما أقترب منها من القصص عند سائر الأمم ، وما أشبهها في معالجة الموضوع أو تخطيط الخلق ، وما نزعتها في إستكناه النفس والبعد عن البهرجة اللفظية ، كان أحرى بأن يكون في الطراز الأول

وبلزاك من هذه الوجهات ، وبخاصة من حيث درس نوازع النفس ، أقرب المؤلفين إلى المزاج الروسي . فهو لذلك أفضلهم وأبقاهم على مر الأزمان . وربما يمتاز بلزاك أيضاً على كثير من أدباء روسيا ، بتنوع أسباب العيش التي يعيش بها أشخاص قصصه . فقد قال تين عنه : «نجد في بلزاك سمساراً وعالماً أثرياً ومهندساً معمارياً ومنجداً وخياطاً

وتاجر أهدام ووكيل تجارة وطالب صناعة وطبيباً ومحامياً »

وهناك وجه آخر للشبه بين بلزاك والقصصيين الروس ، وهو تلك الصوفية التي كثيراً ما كانت تدفعه إلى الأعتماد على غرائزه وبصيرة نفسه ، أكثر من الأعتماد على عقله

ولد بلزاك سنة ١٧٩٩ ، وعني أبواه بتربيته . وعندما بلغ الرابعة عشرة جيء به من المدرسة إلى البيت ، وهو خائر القوى لايدري أحد من الأطباء علته . وكان أكثر أوقاته منطرحاً على الفراش ، وبقي مدة طويلة وهو على هذه الحال . ولعله من هذه العلة ، أكتسب ذلك الذوق إلى إدمان القراءة ، وأنغرز في مزاجه الميل إلى الكتابة والتأليف . وكثيراً ماتكون العلة ، وما تقتضيه من سكون الحركة وعدم النشاط ، داعية إلى تقوية النزعة الأدبية في بعض الأشخاص ، ممن تميل طبائعهم إلى الأدب

وأخذ في درس القانون ، ولكنه لم يزاول المحاماة . فقد قام في ذهنه أن يحترف الأدب ، وبقي أميناً لهذه الحرفة ، لايبغي بها بديلا ، على ما عانى منها من الفاقة ، حتى أوتي في آخر أيامه النصر والشهرة

ومما يدل على بعض ما لقيه من الشدائد في بدء حياته الأدبية ، هذه القطعة من خطاب أرسله إلى أخته لورا يقول فيها : « إني شاب ، وبي جوع ، وليس على طبقي طعام . آه يالورا !. لي رغبتان عظيمتان : أن أنال الشهرة وأن أحب . فهل أحققهما ؟»

وأخذ بلزاك في مزاولة فنه ، يكادح من الصنعة صعابها ، ويضع الترسيمات العظيمة للكوميدية الأنسانية التي أخذ على عاتقه أن يصف فيها مختلف معاشات الناس وأحوالهم وآمالهم وأحزانهم وأتراحهم . ومما يدل على أن هذه الترسيمات كانت في ذهنه ، وقت محاولاته الأولى لكي يكون أديباً معروفاً ، قوله في إحدى قصصه التي ألفها أيام خموله:

« عليك أيها القارىء أن تتفهم أخلاق هؤلاء الأشخاص الذين أقدمهم لك ، وأن تقفو حظوظهم في ثلاثين قصة ستأتيك بعد »

وحدث في سنة ١٨٢٩ أن جاء البريد إلى بلزاك يحمل خطاباً من قلم سيدة ، فما أن جاء على آخره حتى شعر كأن نفسه قد غمرها نوع من الوحي . فقد كان الخطاب ينبض فهما وعطفاً ، وكان فيه شيء من النقد الذي يبعث إليه الأخلاص والحب . إذ أومأت الكاتبة إلى بعض عاداته التي ألفها في أسلوبه ، وصار يكررها على غير وعي منه ، حتى باتت تُمج من القراء

وأخذ بلزاك يتلو الخطاب ، ويعيد تلاوته وهو في سرور يشبه اللذة . ويسائل نفسه عن هذه الكاتبة التي تفيض حباً وعطفاً وحكمة . ثم تواترت عليه الخطابات من هذه الكاتبة ، وعرف منها أن كاتبتها سيدة بولندية تدعى إفيلينا هانسكا . وكانت متزوجة من أحد الأشراف البولنديين ، وكان متمرضاً بزمانة لا يبرأ منها . وكان كلاهما في

ولم تمض مدة طويلة على تبادل المكالمات بينهما ، حتى سافر إليها بلزاك ، والتقى بها في نيوشاتل . ويقال أنها عند أول لقائها به أغمي عليها ، من فرط التأثر . ولم تكن هذه السيدة البولندية جميلة ، ولكن كان على وجهها مسحة جذابة من روحانية نفسها ، جعلت بلزاك يعلق بها

وعندما فارقها وعاد إلى باريس ، لم يكن يمضي عليه يوم واحد حتى يكتب لها ويخبرها عن أتفه الأشياء وأقلها خطراً . وكان طول هذا الوقت تتوالى خسارته في مؤلفاته ، بحيث باتت ديونه أربعة آلاف جنيه وهو في الأربعين من عمره . وكانت أكبر خسارته ناشئة عن شدة عنايته بتحرير مؤلفاته ، حتى كان يتفق أحياناً مع أحد الناشرين على مقدار من المال لطبع كتابه ، فإذا جاءته التجارب الأولى للطبع ، أعمل فيها قلمه تحريراً وتغييراً ، حتى تزيد كلفة الطبع عن مبلغ الأتفاق الذي بينه وبين الناشر . فكان يخرج من كتابه بعد تأليفه بخسارة غير قليلة . ومثل هذه الشدائد كانت جديرة بأن ينكسر أمامها قلب أي مؤلف آخر ، فيتثبط بها عن المضي في إتمام عمله . ولكن بلزاك في ذلك الوقت كانت نفسه تتأجج بنار الحب التي أشعلتها في نفسه أقيلينا هانسكا. فقد كان يقضي في عمله نحو ١٨ ساعة ، فإذا أعيا وأنطرح على فراشه ، يبغي النوم ، تذكر إقيلينا ، فيهب نشيطاً مسرعاً ، ويكتب لها خطاباً يشع

بالحب والرجاء

ومما يؤثر عن بلزاك قوله لها « ليس يُرضي الرجل في أول حبه سوى المرأة في آخر حبها ». وقوله : « الحب عندي هو الحياة ، وما شعرت بالحياة قط كما أشعر بها الآن »

وفي سنة ١٨٤٢ مات زوج إڤيلينا . وكان بلزاك ينتظر أن يتزوج حبيبته ، ولكن ما أشد دهشته إذ لم تقبل حبيبته الزواج به على شدة حبها له وتعلقها به . وكانت تتعلل بالعلل ، للرفض أو الارجاء . فساعة تحتج بأولادها ، وأخرى تحتج بأملاكها في بولندا ، وما إلى ذلك

وحقيقة الحال أن بلزاك كان يحبها ويشتهيها . أما هي ، فكان حبها إعجاباً وعطفاً في الأصل ليس غير . فلما عرض عليها الزواج ، لم تجد في نفسها تلك الدوافع التي تبعث في المحبين الرغبة في العيشة معاً ، ودوام قرب أحدهما من الآخر

وأخيراً تزوج الأثنان في سنة ١٨٥٠ . وكان من حسن حظ بلزاك ، أو حظهما معاً ، أن هذا الزواج لم يدم أكثر من خمسة أشهر ، مات في نهايتها بلزاك بضعف القلب . لأنهما لو عاشا أكثر من ذلك ، لما أطاقا العشرة . فإن إڤيلينا هانسكا إنما أحبت من بلزاك روحه وعبقريته ، وهذا الخيال الذي تكون في رأسها من إدمان قراءة كتبه

وقد وصف بلزاك علاقته معها في قصة صغيرة له تدعى «سيراڤيتا» ليست من أجود قصصه ، ولكنها تظهر القاريء على سر من أسرار النفس في الحب والقلق

لاسـاله وصاحبته

كان القرن التاسع عشر بدء نهضة الأشتراكية وقيام العمال ، الذي نرى أثره الآن في ظهور الأحزاب الأشتراكية على مسرح السياسة ، وتقلدها زمام الحكومات ، وهذا الأنقلاب الهائل في روسيا

وقد كان أكبر زعماء الأشتراكية في ذلك القرن يهوديان ، أحدهما كارل ماركس ، والآخر فرديناند لاساله

وكان لاساله من يهود ألمانيا ، نبت في عائلة غنية ، وتربى أحسن تربية يحصل عليها شباب تلك الأيام في جامعات ألمانيا . وقد أراده أبواه على أن يسلك سبيل والده في تجارة الحرير ، فأبى ، وأختط لنفسه خطة خاصة ، آثر فيها المجد على الثروة ، ووجاهة الأسم على وجاهة المادة . فأخذ على نفسه أن يُعين العمال في نهضتهم نحو تحقيق الأشتراكية ، وأخذ يدعو إليها بماله وقلمه ، يخطب ويكتب في كل مكان، وينشر النشرات ، ويؤلف الرسائل في تحبيذها والدعوة إليها . حتى صار محور الحركة الأشتراكية في ألمانيا ، ينضوي إلى لوائه آلاف العمال في جميع أنحاء ألمانيا

وكان لاساله مثقفاً كثير الأطلاع والفحص عن الآداب والعلوم ، فكان لذلك كثير الأختلاط بالعلماء والأدباء ، يجلونه ويكبرون فيه إجتهاده وأمانته لحركة العمال . وقد شهد فيه هَينَه الأديب الألماني المتفرنس هذه الشهادة التالية . التي كتبها لكي يقدمه بها إلى المؤرخ أتسيه . وناهيك بشهادة يكتبها هَينَه ، قال :

« صديقي هر لاساله ، الذي يحمل إليك هذه الرسالة ، هو رجل ذو مواهب ذهنية عظيمة . فهو يمزج قوة الإرادة إلى كفاية العمل ، ويضمهما إلى أبعد مدى من الثقافة وأكبر مقدار من العلم . وهذا كله إلى ميزة الفهم والإفهام بما لم أر لهما شبيهاً . ولست أعرف أحداً قد أجتمع فيه مثل هذا المقدار من الحماسة إلى هذا المقدار من الذكاء »

وقد كان هَينَه من كبار أدباء القرن التاسع عشر . وحسب القاريء دليلاً على مزاج لاساله الأدبي ، وأنه من الطراز الأول ، إعجابه بهينَه في هذه الفقرات التالية :

« إني أحب هَينَه ، فهو شخصي الثاني ، ما أبلغ جرأته وما أعظم فصاحته !. فهو يعرف كيف يهمس همس الصبا عند تقبيلها الورد في كلماته ، وكيف يتنفس اللهب عندما يجيش ويحصد ما حوله . وهو يستثير أرق العواطف وألطفها ، كما أنه يستنهض منها أكثرها شراسة وأبعدها جسارة . فهو يملك ناصية القيثارة ، يعزف على جميع أوتارها »

وبلغ لاساله من الشهرة والقوة ، أن صار بسمارك يدعوه ويفاوضه في الحض على حركة الأتحاد بين الأمارات الألمانية . يستغل بذلك نفوذه لترويج الدعوة إلى الأمبراطورية الألمانية

وفي حياة لاساله إمرأتان ، قد كان لهما أكبر أثر في تاريخه . أولاهما تدعى الكونتس هاتزفلد ، ولم يكن لاساله يعشقها ، فقد كانت تبلغ من العمر ضعفي عمره ، وكانت تخاطبه في رسائلها إليه بقولها : « يا ولدي العزيز ». وكان هو الآخر عندما يكتب إليها يذكر لها أسماء من ألتقى بهن من النساء ، وما قاله لهن ، ويصف جمالهن لها . وليس هذا شأن من يحب

وقد نُشرت بعض الكتب لبث الأعتقاد بأنه كان يحبها ، ولكن فحص خطابات كل منهما للآخر يثبت أنه كان هناك ود بينهما ، لم يصل إلى درجة العشق . ولا فكر أحدهما في ذلك

وخلاصة علاقته بهذه المرأة أنه عرفها في سنة ١٨٤٦ ، وكان عمره إذ ذاك ٢١ سنة ، وهي تناهز الأربعين . وأمتدت صلة الصداقة بينهما حتى صارت تبثه شكايتها من زوجها . وكان زوجها قد عرف خليلة ملكت لبه، وأستأثرت بأمواله ، حتى خشيت الزوجة أن يوصي بأمواله لها دون أولاده . وعرفت أنه أوصى بالفعل بجزء كبير من أمواله لها ، وأن وثيقة الوصية موجودة عند هذه الخليلة . فأعمل لاساله فكرته لكي يحصل على هذه الوثيقة . وعرف أن الكونت وخليلته ذاهبان إلى أكس

لاشابل . فأندس وراءهما يصحبه صديقان ، حتى نزلوا في الفندق الذي نزل فيه الخليلان ، وسرقوا هذه الوثيقة . ولكن لسوء الحظ ، تنبهت المرأة للسرقة، وصاحت بخدم الفندق . فقبضوا عليهم ، وساقوهم إلى مركز البوليس ، حيث أخذ التحقيق مجراه ، وأنتهى بالحكم على الصديقين دون لاساله ، لأنه لم يثبت عليه شيء . وعاد لاساله إلى الطرق السلمية لمكافحة هذا الزوج . وبقي في مكافحته تسع سنوات ، ربح فيها القضية لأبناء الكونتس ، وألغيت الوثيقة . ولكن ذلك بعد أن أضاع مقداراً كبيراً من ماله الخاص

أما المرأة الثانية فتدعى هيلين فون دورنجس . وكانت فتاة قد نالت حظاً كبيراً من التربية ، ونشأت نشأة حرة طليقة . وكانت وهي فتاة قد ساحت في سويسرا وإيطاليا ، فأكسبتها الغربة من التجارب ما جرأها على الحديث والأختلاط . وكانت مخطوبة إلى رجل إيطالي في سن الأربعين ، فقبلته مكرهة بضغط من أبويها . ثم أنخلعت منه ، وعرفت شاباً شريفاً من أهل الفلاح ، فمالت إليه حتى خيل إلى من حولهما أنهما لابد متزوجان قريباً

ولم تكن إلى ذلك الوقت قد عرفت لاساله ، وإنما كانت تسمع به . ففي إحدى الليالي ، وهي جالسة وقد تفتحت للحديث ، وصارت تجهر بآراء قد جرى العرف على أن تكتمها من في سنها ، قال لها بارون من الحضور:

« هل تعرفين فرديناند لاساله ؟ »

فقالت : « كلا »

فقال : « كيف ذلك ؟. أحقاً أنك لم تريه ؟. هذا عجيب ، فقد خلق كل منكما للآخر »

فأستحيت من أن تستزيده عن غرضه . ولكن لم تمض برهة حتى قال آخر : « يبدو من حديثك أن أفكارك وآراءك قريبة جداً من أفكار فرديناند لاساله وآرائه »

فتطلعت نفسها من ذلك الوقت إلى رؤية لاساله ، وصارت تسأل عن أخباره ، وتهجس بذكره قبل أن تراه . وفي إحدى الليالي غشيت «صالون» إحدى العائلات ، ورأت شاباً مديد القامة أشقر ، ذهبي الشعر جعده . فرأت نفسها تسير نحوه كأن به قوة قد جذبتها إليه . وكان هذا لاساله . وأخذا في الحديث ، وشعر كل منهما أنه يرى في شخص الآخر صديقاً قديماً . وبلغ من ألفة الواحد بالآخر أنهما عندما خرجا ، صار لاساله يتحبب إليها ويدللها ويسميها بأسماء الغرام

ومضت تسعة أشهر بعد ذلك لا يلتقيان . ثم ألتقيا في « صالون » آخر ، وبث كل منهما إلى الآخر لواعجه . ومما قاله لاساله لها في تلك الليلة ، وكان الخطر محدقاً به ، والحكومة تنوي القبض عليه لمحاكمته ، لأثارة الهياج بين العمال :

« هبيني حكم عليّ بالأعدام . فما أنت فاعلة ؟ »

فأجابته على الفور : « أنتظر حتى يقطع رأسك ، حتى تتمتع برؤية حبيبتك إلى آخر لحظة من حياتك . ثم بعد ذلك أتناول السم »

ومضيا في الحب حتى أشتهر عنهما ، وصار جميع من يعرفونها يرقبون زواجهما . ولكن والدي الفتاة كانا يعارضان في هذا الزواج أشد معارضة ، ويعتبرانه مهيناً للعائلة ، حاطاً بكرامتها . فلاساله لم يكن إشتراكياً فحسب ، بل كان أيضاً يهودياً . وكلتا الصفتين كانت من القبائح في نظر العائلة

ولكن الفتاة لم تكن لتخضع لوالديها الخضوع الأعمى الذي كانت تفرضه عليها التقاليد المأثورة ، ففرت إليه ، وأحتملت معها حقائبها ، وطلبت إليه أن يسافرا معاً إلى باريس حتى يتزوجا

ولكن لاساله لم يكن يحب أن يتزوج منها خفية في بلاد الغربة ، إذ كان يرى من واجبه نحو حبيبته أن يتمم الزواج علناً باحتفال وأبهة جديرين بعروسه الجميلة . وكان واثقاً أن معارضة أبويها سوف يتغلب عليها ، ويميلهما إلى رأيه

ولكنه أخطأ في حسبانه ، فإن والديها كانا قد عقدا نيتهما على أن يزوجاها من ذلك الشريف الفلاخي راكوفتز ، فلما رجعت هيلين إليهما أخذا في تقريعها ، وحبساها في غرفة لا ترى أحداً سواهما

وطالت مدة حبسها ، وأهلها وذوو قرابتها يترددون عليها ويترضونها بكل الأساليب . وكانت في نفسها رفعة من لاساله ، أحدثها عدم

موافقته على السفر والزواج . وأخيراً بعد طول الجدال ، رضيت أن تكتب إلى لاساله خطاباً ، تقطع فيه ما بينهما من صلة الحب السابق ، وتنبئه بعزمها على الزواج . وعقدت خطبتها على راكوفتز

وبلغ ذلك لاساله فإستشاط غضباً . وأرسل في الحال إلى راكوفتز يطلب مبارزته . ولم يكن راكوفتز يحسن شيئاً في العالم قدر المبارزة ، فسارع إلى تلبية الطلب

ألتقى الأثنان في جنيف في سويسرا ، وأخذ كل منهما شاهديه ، وخرجا بعيداً حيث جرت المبارزة . وأنتهت بأن جرح لاساله جرحاً بالغاً ، كان شديد الألم ، لم ينقطع تأوه لاساله منه إلا عند وفاته بعد ثلاثة أيام من المبارزة

وتزوجت هيلين من هذا الفلاخي . ولم يدم زواجهما سنة ، إذ مات بالسل بعد نحو خمسة أشهر . وتزوجت بعد ذلك من رجل آخر ، ثم أحترفت التمثيل . وقد وضعت كتاباً عن ذكرياتها عن لاساله ، أدر عليها ربحاً كبيراً . وصفت فيه زعيم الأشتراكية الألماني ، وضمنته أهم خطاباته إليها . وقد ألف الكاتب الأنجليزي چورچ ميريديث قصة عن حب لاساله وهيلين ، وهي من أبدع قصصه

جامبتا وصاحبته

مضى على الجمهورية الفرنسية أكثر من نصف قرن . وقد ماتت النزعة الملوكية في فرنسا أو كادت . وليس يعزى إنتشار الفكرة الجمهورية ، وخمول المذهب الملوكي ، إلا إلى جامبتا

كان ليون جامبتا من أهل جنوب فرنسا ، ولم يكن خالص الدم الفرنسي ، إذ كان أبوه إيطالياً . وكانت صفات أهل الجنوب متجسمة فيه . ومن الناس من يقول أنه كان بدمه عرق شرقي . وعلى كل حال ، فإنه من حيث الخلق ، كان مندفع العواطف ثائرها . يميل إلى البلاغة الخطابية شأن الفرنسيين والشرقيين . والفرنسي أقرب الناس طبعاً وخلقاً إلى الشرقيين

ونال جامبتا شهادة المحاماة وهو في الحادية والعشرين . وسار تواً إلى باريس ، حيث أخذ في مقاومة نابوليون الثالث . فكان يخطب في تبيان الأضرار الناشئة عن نظام الأمبراطورية ، وعرقلته للحرية ولرقي البلاد ، ووجوب إستبدال الجمهورية بهذا النظام

وكلن جامبتا في هيئته يخالف الفرنسيين بعض المخالفة ، فقد كان

لون بشرته زيتونياً . وكان جافي الطبع ، مغرماً بالتوم والزيت . إذا خطب ، تحركت جميع جوارحه ، كأنه كان يترنح ببلاغته . وكان لعابه يتطاير من فيه ، فكان أعداؤه لهذا السبب يلقبونه بلقب : « المجنون الغضبان »

ولكن هذه الصفات نفسها كانت تحببه إلى الجمهور المؤلف من العمال والصناع ، فكان يلتف حوله ، ويزيد سخطه على النظام الأمبراطوري ، يعزو إليه كل نقيصة في الحالة الأجتماعية أو الأقتصادية

وفي سنة ١٨٦٩ أنتخب جامبتا عضواً في المجلس الأشتراعي ، وأخذ أيضاً في متابعة حملاته على الأمبراطورية ، حتى صار له حزب في المجلس يناويء الحكومة ، ويفتش عن عيوبها ويشهر بها . وكانت قاعة المجلس مبنية بهيئة دور التمثيل ، فهي من جانب نصف دائرة ، يجلس فيها النواب ، ويجلس فوقهم الجمهور والصحفيون . فإذا وقف الخطيب، لم يوجه كلامه إلى رئيس المجلس كما هو الشأن في أنجلترا أو أمريكا ، وإنما يواجه النواب والجمهور . ومثل هذا يستثير الروح الخطابية ، ويبتعث في الخطيب الفصاحة والذلاقة . بخلاف ما يجري في أنجلترا مثلاً ، حيث الخطيب يواجه الرئيس ، الذي يطالبه بالموضوعية ويمنعه من الأستطرادات أياً كانت

وحدث أن جامبتا وهو يخطب ، جالت عينيه بين الجمهور ، فرأى فتاة هيفاء تكاد تكون نحيفة ، قد كست يديها بقفازين أسودين . وكان

سائر ملابسها قاتماً ، فتأكدت من ذلك نصاعة لون بشرتها . وكانت هذه الفتاة تحدق فيه بنظرها . فإذا حملته موجة الحماسة وهو يخطب ، رأى الفتاة تتحمس لحماسته ، يرتفع صدرها ويهبط ، وتختلج أعضاؤها ، وتحمر وجنتاها ، كأنها هي التي تخطب

وأطرد الحال على هذا المنوال جملة أشهر ، حتى لم يشك جامبتا في أنها تحبه كما يحبها . وحدث في سنة ١٧٨٠ أن وقف جامبتا خطيباً في المجلس ، وأخذت فصاحته تتدفق عن فضائل النظام الجمهوري . وأخذ يصرح بهذه الفضائل ، ويجهر بصوته عالياً ، بما لم يسبق أن فعل مثله قبلاً . وكان وزراء الأمبراطور يسمعون له وهم خانسون ، وقد تقتعذ كل منهم في مكانه ، وسائر الأعضاء صامتون ، قد ذعر بعضهم بهذه الصراحة حتى وجم ، وسحر البعض الآخر بحسن بيانه وبلاغته حتى بقي ميهوتاً يحدق النظر في الخطيب وكله آذان مستمعة

وما أنتهى جامبتا من خطبته حتى ألتقى النظران ، فرأى وجه هذه الحبيبة ينطق بالأعجاب والعطف

وقد قلنا أن جامبتا كان جافي الطبع ، لم يعاشر من الناس إلا طبقات العمال والصناع . ولذلك لم يكن يعرف ذلك العرف الذي يجري بين الطبقات العليا ، وتلك العادات المألوفة بينهم في أحترام الأحساس ومراعاة الذوق ، والتلطف في الأشارة والكياسة في السلوك . ولذلك عندما أنتهى جامبتا من خطبته ، أخرج ورقة من محفظته ، وكتب سطراً

أو سطرين ، ثم هتف بأحد الخدم ، وأعطاه هذه الورقة ، وطلب إليه أن ينقلها إلى هذه السيدة . وكل هذا حدث علناً أمام الأعضاء والجمهور

ولكن الفتاة كانت أرق حاشية وأوفر أدباً من جامبتا . فإنها أخذت الورقة والعيون ترقبها ، فلم تفتحها ، بل مزقتها وألقتها على الأرض . وهي صامتة هادئة ، كأن لم يحدث لها شيء . وتنبه بعد ذلك جامبتا ، وعرف أنه يعامل إمرأة لها كرامة النساء الشريفات

ثم حدثت حرب السبعين بين ألمانيا وفرنسا ، وحوصرت باريس ، وكان جامبتا بها يهيء وسائل الدفاع . وبقي على ذلك مدة . ثم رأى أن يجهز جيشاً لأستخلاص باريس ورد الألمان عن فرنسا . فركب بالوناً طار به من باريس في جنح الظلام ، وهبط في جنوب فرنسا ، حيث أخذ يؤلف الجيوش لمحاربة الألمان . وكانت الهزائم من نصيبه في أكثر ما وقع بينه وبين جيش العدو ، ولكنه كان مع ذلك دؤوباً على حشد الجيوش ومناوأة الألمان ، وكان يقول في ذلك : « يجب أن لا نرضى بالصلح ، ما دام في فرنسا مائتا ألف جندي قد عبئوا للقتال ، وما دام عندنا ألف مدفع نسددها نحو خطوطه »

ولكن فرنسا كانت قد ملت القتال ، وفترت عن مجاهدة عدوها ، ورضيت بالصلح الذي عقد في ڤرساي !

وأجتمعت « الجمعية العمومية » في ڤرساي ، وصار جامبتا عضواً فيها . وبينما هو في إحدى خطبه ، لاحت منه نظرة إلى مكان الزائرين،

قرأى الفتاة . فتحول إلى إحدى غرف المجلس ، وكتب لها هذه الرقعة :

« ثم هأنذا أراك مرة أخرى . فهل حقيقة أنك أنت هي ؟ »

وذهب الخادم ، وناولها الرقعة في لطف وخفية . فأخذتها ودستها بين صدرها وملابسها ولم تجب

وكان جامبتا قانعاً بهذه المعاملة ، راضياً منها بهذا المقدار من العطف ، بعد أن أرتكب غلطته الوقحة منذ سنوات . فأستبشر خيراً ، وأمتلأ قلبه آمالاً . ولكنه سقط في يده عندما رآها قد أنقطعت عن زيارة الجمعية

ولكنه مع ذلك بقي يشعر في نفسه بأنه لابد ملاقيها في المستقبل ، وأنها قد كُتبت له في لوح القدر . وكانت نفسه صادقة البصيرة في ذلك

فقد حدث أن أحد أصدقائه أصيب بجرح ولزم فراشه ، فذهب يعوده . وبينما هو في منظرة البيت ، وإذا به يرى الفتاة التي كانت موضوع خياله ، وحديث هواجسه ، ماثلة أمامه

فتقدم منها ، وجعل يحادثها بتحفظ ، وهي تجيب بأخصر الألفاظ . ثم أستأذنت وخرجت ، وخرج جامبتا في أثرها حتى أدركها في الشارع

ثم قال لها بلهجة التوسل والتضرع : « لم مزقت خطابي ، وكيف وأنت تعرفين حبي لك طول هذه السنين ، تلزمين الصمت ولا تجيبينني؟ »

فترددت الفتاة وتلعثمت ، وشرقت عيناها بالدموع ، ثم قالت :

«لايمكنك أن تحبني لأني غير جديرة بك . فلا تلح عليّ ، ولاتعدني شيئاً. فليودع كل منا الآخر . ويجب على الأقل أن أفضي إليك بقصتي، لأني من أولئك النسوة اللاتي لايتزوجن أحد »

ثم أخذت تشرح له قصتها ، وخلاصتها أن أباها كان ضابطاً في الجيش ، توفي فجأة ، ولم يترك لها شيئاً تعيش منه . فأشتغلت مربية في بيت أحد قادة الجيش مدة الأمبراطورية . فأغرى بجمالها ، وفسق بها ، وهي بعد في غرارة الشباب ، لاتحسب للمستقبل ، ولا تدرك قيمة عذرية الفتيات. فلما تفكرت وتدبرت في أمرها ، أتضح لها مبلغ جرمها ، فأخذت تشتغل في أعمال وضيعة ، وقد أعتزمت على أن تقضي حياتها في هذه الأعمال ، لاتفكر بزواج أو رفاهية ، تكفر عن ذلك الذنب القديم ، حتى تنتهي حياتها

ولكن جامبتا كان قد تعلق قلبه بها . فلم تؤثر فيه هذه الأقوال ، وطلب إليها أن تتزوج منه . فلما ألح عليها في ذلك ، قالت له : « إن زواجنا يؤثر في شهرتك ، فإن شرفي قد ضاع ، وحياتي قد ذهبت ، فليس لي مستقبل . وخير لكل منا أن يفارق صاحبه »

ولكن الحب كان قد لج بينهما ، وأشتد تعلقهما الواحد بالآخر . وكانا يلتقيان على مواعيد ، وفي أمكنة بعيدة عن الأعين . وأخيراً رضيت ليوني (وهو أسم حبيبته) بأن تعقد معه خطبة كاثوليكية تقوم بمقام الزواج . فيعيشان بعيدين منفصلين . ولكن تكون الخطبة بمثابة

الزواج ، ينال منها المحبان جميع ما يناله المتزوجان

وكانت ليوني شديدة الأيمان بالدين . وكانت تعتقد أنه لايغسلها من خطيئتها الماضية سوى عقد كنسي يعقد بينها وبين حبيبها ، محوطاً بجميع ما في الدين والكنيسة من الروعة والهيبة والوقار

وكان جامبتا في ذلك الوقت يعارض الكنيسة ، ويدعو إلى فصلها عن الدولة . فطلب أن تتزوج منه أولاً زواجاً مدنياً ، ولكنها رفضت هذا بتاتاً . ولكيلا يقوم عليه خصومه ، ويعيرونه بزواج كاثوليكي من جهة ، ولكي يرضي ضمير حبيبته ، أتفق كلاهما على هذه الخطبة الكاثوليكية

وعند الكاثوليك نوعان من الخطبة إحداها عادية لاتجيز بين الخطيبين أية علاقة زوجية ، والأخرى تجيز هذه العلاقة . وقبل جامبتا أن تعقد هذه الخطبة الأخيرة بينهما . وذلك بعد أن حصل من حبيبته على وعد بأن تتزوج منه زواجاً رسمياً عندما يترك الحياة السياسية

وتمت الخطبة ، وأستأجرت ليوني بيتاً منعكفاً ، وصارت تلتقي بحبيبها في الأماكن التي يقل غشيان الناس لها ، دون أن يزورها جامبتا في منزلها . وبقيت على ذلك مدة طويلة ، لايدري أحد من خصوم جامبتا بعلاقتها به

وعاشت على ذلك طول مدة إشتغاله بالسياسة ، مضحية بهناء الزواج، وشرف علنيته ، مؤثرة أن تكون علاقتها سرية ، حتى لاينال

جامبتا شيء من عار تاريخها الماضي

وكان جامبتا يسرف في إنفاق قوته عنى الحب والسياسة ، وقد قال فيه مرة عدوه اللدود بسمارك :

« إنه هو الوحيد الذي يفكر في الأنتقام من ألمانيا . وهو أكبر من يهدد ألمانيا من الساسة الفرنسيين ، ولكنه لحسن الحظ لن يعيش كثيراً . ولست ألقي هذا القول جزافاً ، فاني أعرف من التقارير السرية التي ترسل اليّ معيشة هذا الرجل كما أعرف عاداته . فهو يجهد نفسه أكثر مما يتحمل . لايستريح في الليل أو في النهار . وجميع من عاش هذه العيشة من الساسة ماتوا صغاراً . ويجب على رجل السياسة ، لكي يخدم أمته حق الخدمة أن يتزوج أمرأة دميمة ، وأن يكون له أولاد كسائر الناس . وأن يكون له مسكن ريفي ، يستطيع أن يعيش فيه كما يعيش الفلاحون ، ويذهب إليه من وقت لآخر للراحة »

وكان نظر بسمارك صادقاً في جامبتا . فقد حدث أنه هزم في البرلمان في سنة ١٨٨٢ ، فأعتزل السياسة . وعزم على أن يقترن بليوني ، ويعيش معها سائر حياته ، مغتبطاً بالحياة المنزلية التي لم يتمتع بها للآن . ورضيت ليوني بالزواج الآن ، وصارت تنتظر اليوم الذي يعقد فيه لكي يعيشا معاً بلا حياء أمام الجمهور

وبحث جامبتا عن منزل في الريف لكي يكون مسكنهما . ولم يكن يملك من المال بعد طول هذا الجهاد السياسي ، وعظيم ما أبلاه في سبيل

وطنه ، سوى نحو خمسمائة جنيه . وذلك على الرغم من الملايين التي مرت في يديه ، وكان ينفقها بلا حساب على الجيوش والأساطيل وغيرها. فأشترى بهذا المبلغ منزلاً كان يسكنه القصصي الشهير بلزاك ، وأخبر حبيبته بذلك ، وأستعد كلاهما للأنتقال إليه

وبينما هو في ذلك ، وإذا بأشاعة غريبة قد أنتشرت في باريس ، مؤداها أن جامبتا قد قتل . فبعض يقول أن أحد الفوضويين قد حاول قتله ، وآخرون يقولون بل هو أنتحر

وأتضحت الحقيقة بعد قليل . فإن جامبتا وهو يتهيأ للأنتقال إلى منزله الجديد في الريف ، كان ينظف مسدساً ، فغفل عن رصاصة كانت موجودة به . فبينما هو يقلبه ويشد زنده ، وإذا بالرصاصة قد أنطلقت وخرقت كفه . ولم يكن الجرح مميتاً ، ولكن بسمارك كان صادق النظر . فإن جامبتا كان قد ضعف من الأفراط في تحميل جسمه ما لا يتحمل ، حتى صار مثل هذا الجرح الذي يبرأ منه غيره في أيام ، خطراً كبيراً . فإنه تقيح ، وأحدث حمى شديدة ، مات منها جامبتا

وعلمت ليوني بما جرى لحبيبها ، فخرجت من بيتها لا تلوي على شيء . تهيم في الغابات ، وكأنها قد فقدت رشدها . ثم وجدت ديراً فدخلت فيه . ولكن نفسها المضطربة بقيت ثائرة حانقة على هذا القدر الذي حرمها من حبيبها في الساعة الأخيرة التي كانت تنتظرها . وخرجت من الدير ، وذهبت إلى باريس ، حيث عاشت في بعض المنازل

القذرة بين الفقراء والمبؤسين

وعلم بها أصدقاء جامبتا ، فأنتشرها من هذه الوهدة التي ألقت نفسها فيها ، وعنوا بها إلى يوم وفاتها في سنة ١٩٠٦ . وكان آخر ما كتبه جامبتا وهو يعاني سكرات الموت الأخيرة ، هذه الكلمات التي أرسلها إلى حبيبته ، وقرأتها بعد وفاته :

« إلى نور نفسي . إلى نجم حياتي : ليوني ليون ، وداعاً يا حبيبتي»

الإمبراطورة كاترين

من غرائب التاريخ ، أن أكبر رجل فرنسي أمتلك قلوب الفرنسيين ، ورفع شأنهم التاريخي ، لم يكن فرنسياً بل كان إيطالياً . وكذا الحال في روسيا ، فإن أكبر من ملك زمام الأمة ونال أكبر مكانة في قلبها ، كان إمرأة ألمانية

ولكن هذين الأجنبيين ، نابوليون في فرنسا ، وكاترين في روسيا ، كانا يمتازان بالميزة الكبرى التي رفعتهما إلى مقامهما السامي ، وهي أن كلاً منهما إندغم في الأمة التي تولى حكومتها ، فصار منها قلباً وقالباً، يخدمها بعقله وقلبه

فقد كانت روسيا في منتصف القرن الثامن عشر تحكمها الأمبراطورة اليصابات ، إبنة بطرس الأكبر . ولم يكن لها خلف شرعي لكي يرث العرش . فأخذت تبحث عمن يليها ، وأخيراً عقدت ولاية العهد على أبن أختها الأمير بطرس في سنة ١٧٤٢ . وكان فتى في السابعة عشرة ، خلواً من جميع خصال الملوك ، يقضي نهاره في الشراب ، ولا يجالس سوى أوشاب الناس وحثالتهم . وكان أبله ، يتسلى بالسخائف ، يجمع

الكلاب فيصفها ويعاملها كأنها جنود . ويجمع الفئران ، ثم يأخذ في تعليمها وتأديبها . فإذا أخطأت عقد لها مجلساً عسكرياً ، وحاكمها ، وحكم عليها بالإعدام

وبحثت الإمبراطورة اليصابات عن زوجة له ، وطلبت له أخت الأمبراطور فريدريك الثاني الألماني . فأبى رأفة بأخته أن تقع فريسة لهذا الوغد الأبله ، وشفقة عليها أن تعيش في ذلك الوسط الروسي . وكانت روسيا إذ ذاك معدودة بين البلاد الهمجية في العالم . والحق أنها كانت في ذلك الوقت أقرب إلى آسيا في العادات والأخلاق والأنظمة ، منها إلى أوروبا

وأخيراً أهتدت إلى أميرة ألمانية فقيرة تدعى صوفية . وكانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، بروتستانتية المذهب كسائر أهل بلادها . فلما كانت سنة ١٧٤٤ ، عقد زواجها على الأمير بطرس ، بعد أن غيرت مذهبها وأسمها . فصارت أرثوذكسية ، وصارت تدعى كاترين

وعاشت مع زوجها جملة سنين وهو يناكدها وينغص عليها عيشها ، لا هم له سوى كلابه وفئرانه وشرابه . ولا يأنس إلا بإخوان الكأس ، يصابحهم ويماسيهم ، وهو في سكر متواصل . وقد تعلم منهم صنوفاً من السفالات ، وكثيراً ما أعنت زوجته ، وهي فتاة ساذجة قد نشأت على الصرامة الألمانية ، يساومها ممارسة هذه السفالات ، فتأبى وتستغيث

وكان طبيعياً جداً أن تفتح كاترين عينيها بإزاء هذا الحيوان الذي

صـار زوجهـا ، تشيم بارقة حب في أولئك الأمـراء الذين يترددون على القصر . وكانت قد أكبت على اللغة الروسية حتى ثقفتها ، وصارت لا تخرج للناس إلا في مظاهر روسيـة . فأحبها الجمهور ، ومالت إليها القلوب . وكـان من بين المترددين على القـصـر رجل تبدو على وجهـه أمارات الرجولة ، يدعى أورلوف . فجرأته على أن يتقرب منها ، ونشأ بينهما حب دام عدة سنين

ولم تبلغ كاترين الثلاثين حتى كان لها جملة أولاد ، يشك الكثيرون في أنهم كـانوا أولاد زوجهـا . لعلاقـتـهـا بأورلوف هذا ، ولأن الشجـار بينها وبين زوجها لم يكن ينقطع

وماتت الإمبراطورة إليصابات ، وأرتقى الأمير بطرس العرش . وهنا يذكر المؤرخون إصلاحين عظيمين قام بهما بطرس هذا . ولكن الحقيقة أنه ليس له فيهما أدنى فضل

فإنه عندما أرتقى العرش ، شد من عزيمته ، ونوى أن يستقيم وينظر في شؤون أمتـه . ولكن هذه العـزيمة الشريفـة ، كمـا يحدث كـثيـراً في أمثاله ، لم يكن فيها من القوة سوى ما في المصباح ، يشب لهبه قبيل الأنطفاء الأخير . فسرعان ما عاد إلى شرابه وكلابه . ولكن حدث ، وهو في جمع حافل من هؤلاء الأوشاب ، الذين كان يجمعهم حوله للشراب ، أن دخل عليـه ضـابط غيـور يغـار على العـرش وعلى مـصلحـة البـلاد فوجده سكران ، فأخذ يخطبه ، ويحثه على خدمة بلاده ، ويذكر له مجد

آبائه . وقدم له خلال ذلك مشروعين للإصلاح . وأمتزجت حماسة خطبة الضابط بحرارة الخمر ، حتى تنخى الأمبراطور ، وأخذ أوراق المشروعين ووقع عليهما ، وهو لايدري ما يفعل

وكان أحدهما يقضي بإلغاء مكتب الشحنة السرية التي آذت الناس كثيراً ، والآخر يرد إلى النبلاء بعض حقوقهم التي كانت قد أنتزعت منهم

ولكن بطرس عاد ثانياً إلى شرابه ، وعادت إليه عصابة السوء التي كانت تساقيه . وأبطره السلطان ، فصار يستبد ويقذف السباب على زوجته الإمبراطورة كاترين جهراً أمام الناس في الحفلات الكبرى . فمن ذلك أنه أعلن مرة أن أبنها البكر ليس أبته ، وإنما هو من نسل عشاق الأمبراطورة

وكانت هذه التهمة تكفي وحدها لطلاق الأمبراطورة أو قتلها . فأخذت هي الأخرى تكيد له ، وتبحث عن طريقة تقضي بها على حياته. وأخيراً دبرت بعناية مع عشيقها أورلوف مؤامرة لخلعه . ولكن قبل أن تختمر المؤامرة ، علم الأمبراطور بطرس بها ، وتحرجت عندئذ الحال ، وخشيت هي أن تقدم للمحاكمة وتعدم . فسارعت إلى جواد وأمتطته ، وسارت إلى الثكنة التي يقيم بها الجنود الروس في بطرسبرج ، وناشدتهم المعاونة على خلع الأمبراطور . وكان هؤلاء الجنود يكرهون بطرس لميله إلى الألمان ، وتأليفه حرساً منهم يؤثره على الروس

فتقدم إليها الضباط بجنودهم ، وأقسموا لها يمين الولاء . وخرج الجميع في أثرها حتى قبضوا على بطرس ، وساقوه أسيراً في إحدى القلاع . وذهب إليه أورلوف ، وحاول أن يجرعه سماً . ولكن بطرس ، كما هو الشأن في عدد كبير من البله ، لم يكن ضعيف العضلات ، فقاوم أورلوف . فعمد أورلوف إلى جوزة عنقه ، فقبض عليها ، وأعتصرها ، حتى خرج الدم من أذني بطرس ، ولم يتركه إلا بعد أن مات

ولم تكن كاترين ترغب في كل ذلك ، ولكنها لم تجد بداً من الرضى بعد أن نفذ السهم . وصارت من ذلك الوقت أمبراطورة روسيا المتحكمة في حظوظها

وكانت عندما لجأت إلى الثكنة تستنجد بالجنود ، قد خرج إليها ضابط جميل الوجه والقوام . وقد وقف أمامها وقفة الأدب والأحترام ، ثم أشار إلى أن خوذتها ليس عليها ريشة . وفي الحال ، أنتزع ريشته ، وتقدم ووضعها برفق على خوذة الأمبراطورة . وليس من شأن هذا العمل أن يُنسى في تلك الظروف الخطيرة . ولذلك تذكرته الأمبراطورة بعد قتل زوجها ، وأستدعته إليها

وكان هذا الضابط يدعى بوتمكين . وكان يختلف عن أورلوف من حيث تمدينه ، وتوحش أورلوف . فقد كان رجلاً مهذباً أنيقاً في ملابسه ، يحب الكتب ، ويدبر الحروب . بينما لم يكن في أورلوف من الصفات

التي تحبها الأمبراطورة سوى جرأته ورجولته

فأنعمت على أورلوف ، وغمرته بألطافها ، حتى تركها راضياً مسروراً . وأستأثرت ببوتمكين . وتبين لها بعد أن عرفت بوتمكين ، أن حبها الماضي لم يكن سوى شهوات متوثبة ، أما هذا الحب فهو دائم متواصل . ذلك فيه حرقة الجوع وأنانية انطمع . أما هذا ، فكله عطف وأستسلام وحنان

ولم تكن كاترين جميلة من حيث الجسم . فقد كانت رُبعة ، متناسبة أعضاء الوجه ، الذي لم يكن فيه مما يفتن سوى حاجبين أسودين ثقيلين ، يشتد ظهورهما لأن شعر رأسها لم يكن قاحم اللون مثلياً . ولكنها كانت ذكية ، لها قدم في الآداب ، وكانت تكاتب ڤولتير ، وكثيراً ما دعته إلى القدوم إليها فأبى

وأحبت كاترين بوتمكين ، وأنعمت عليه أنعام الإغداق ، حتى بلغت ثروته بعد سنتين من معرفته بها نحو ٩ ملايين روبل . وكان لايعرف ضياعه ، لكثرتها وسعة مساحتها . ولكنه هو نفسه كان أيضاً مخلصاً في حبه لها ، فلم يكن يبالي أن يضيع هذه الثروة الضخمة لكي يرضيها أو يترضاها . فقد بنى لنفسه قصراً في بطرسبرج ، وكان يدعوها إليه فيه ، ويعقد لها الولائم الفخمة ، تُزري ولائم الملوك ، وتذكر الناس بأنطونيوس وكليوبطره . فقد دخلت الأمبراطورة في إحدى زياراتها مكتبة بوتمكين ، فوجدت من الكتب ما زُين جلدته بالجواهر الثمينة ،

كالماس والياقوت . وفتحت بعض الكتب الأخرى ، فوجدت الأوراق مؤلفة من البنكنوت الأنجليزي . وحدث أن الأمبراطورة أرادت أن تزور وادي نهر الدينيبر في صحبة بوتمكين . فلكي يسرها ويوهمها بعمار البلاد ، أمر فبنيت أكواخ على شط النهر من الخشب والقماش ، كما تبنى على مسارح التمثيل . وأمر أناساً يقفون إلى جنب هذه الأكواخ ، يهتفون لها كلما مرت بهم

وقد حارب بوتمكين الأتراك ، ونال عدة أنتصارات ، أتسعت بها الأمبراطورية الروسية . ولكن كاترين لم تكن تحبه لهذه الأنتصارات وانما لشخصه ، وما ترى فيه من شدة تعلقه بها وولائه لها . فكان إذا بعد عنها ، ورافق الجيوش في الجنوب لمقاتلة الأتراك ، لاتهتف إلا بأسمه . وإذا كان في بطرسبرج ، فلا تفارقه

ومات بوتمكين وهو في جنوب روسيا ، وحزنت عليه كاترين أشد الحزن. وبقيت لاتذكره إلا باللوعة والأسى ، حتى ماتت بعده بخمس سنوات

خمس نسوة وبرنارد شو

توفي برنارد شو وله من العمر ست وتسعون سنة . وهذا الأمتداد المسرف في عمره ، يجيز لنا أن نعالج ناحية الحب في حياته كما لو كان قد مات ودفن قبل سبعين سنة . لأن القسم الأكبر من حياته قد أصبح جزءاً من التاريخ

وبرنارد شو هو فيلسوف هذا العصر ، وسوف يخلد الكثير من مؤلفاته التي أنتفع بها معاصروه . ولكن حياته نفسها هي خير مؤلفاته، فانه أختط لنفسه خطة في هذه الدنيا ، وأتخذ أسلوباً للعيش ، وأنفرد بميزات أخلاقية جمعت حوله الكثيرين ، وجعلته موضع إعجاب الآلاف الذين يتسقطون أخباره ونوادره

وكان مديد القامة ، أشهب ، أشهل . ولحيته حمراء قبل المشيب . وقد أقتصر على الطعام النباتي ومشتقات اللبن مثل غاندي منذ ثلاث وستين سنة . وهو أرلندي الأصل ، أحترف الأدب ، وعاش في لندن معدماً إلى الأربعين تقريبا ، حين أنفتحت له أبواب الحظ ، فمثلت دراماته على المسرح الأنجليزي والمسارح الأوروبية والأمريكية

وقد عرف كثيراً من النساء ، أو بالحرى عرفته نساء كثيرات . ولا يستطيع من ينظر إلى صورة برنارد شو في شبابه أن يقول أنه كان جميلاً ، ولكنه على الأقل كان غريباً ، يغري بغرابته ، ويجذب بشذوذه. شاب أصهب اللحية ، يتجنب اللحوم والخمور والشاي والقهوة والدخان . إذا تحدث ، أمتلأ حديثه بفقاقيع النكات المؤلمة ، وأحيانا المحزنة . وهو فوق ذلك أشتراكي ، يقف في صف المعارضة الأجتماعية للدولة والمجتمع والأخلاق ، وينتقد بحرارة تخفف من وقعها الفكاهة . وكان هو نفسه دائباً في نشر أسمه وإذاعة صيته حتى لم يكن يمر أسبوع دون أن تتحدث عنه إحدى الصحف ، مادحة أو قادحة . وأنتشر له صيت بأنه ذكي ، ينطق بالكلمات التي تؤثر وتروى

ومما يروى أن الراقصة « ايزادورا دونكان » عرضت عليه عرضاً فاجراً، بقولها أنها أجمل النساء ، وأنه هو أذكى الرجال . وأنها لو أنجبت منه طفلاً ، لجمع بين جمالها وذكائه . فرفض برنارد شو العرض ، وقال أنه يخشى أن يخرج الولد وقد جمع عقلها هي إلى جسمه هو !

وحياة برنارد شو حافلة بالأدب الكفاحي ، الذي ينأى عن البرج العاجي . وهو لم يعش قط محايداً ، يتجنب الأحزاب أو يكره الأنغماس في المشكلات . ولذا كانت جميع دراماته مشكلات إجتماعية ، تخلو أحيانا من الحب ، الذي هو الموضوع الرئيسي للقصة أو الدرامة . أو هي تضع الحب أحياناً كثيرة في المكان الثاني . أما المكان الأول فللمشكلة

الأجتماعية أو الفلسفية أو السياسية

ويجب أن نستنتج من هذا أن حياة برنارد شو نفسه كانت مليئة بالكفاح الأجتماعي والسياسي والفلسفي . وأن إلتفاته إلى الحب ، كان عابراً ، يطفو على السطح ، ولا يتعمق حياته . وكان ينشد به السرور لا السعادة ، لان سعادته كانت ولاتزال في كفاحه لتغيير المجتمع البشري . وقد أفلتت منه كلمة في إحدى دراماته ، دلت على موقفه من الحب ، حين قال أن البشر يتعلقون أحياناً ، ولكنهم يسلكون سلوك الحمير حين يحبون

ويذكر برنارد شو أنه بقي إلى الثلاثين تقريباً وهو بكر كالفتاة العذراء ، إلى أن تعرف إلى أرملة ، أو تعرفت هي إليه . فكان بينهما حب بقي سنين كثيرة لم تشبه سوى علاقته – في نفس الوقت – بإمرأة أخرى . إذ شبت بين المرأتين غيرة جنونية ، كانت تحمله على المصالحة بينهما ، أو على الملق في إيثار إحداهما وقت غيبة الأخرى . وواضح أنه في هذا « الحب » كان يسلك سلوك الحمير الذي ذكره في إحدى دراماتها!

على أننا هنا يجب أن نفهم أن « سلوك الحمير » هذا ، لم يكن ينطوي على إسراف . فلم تتأجج فيه شهوة ، أو يستمر فيه شوق . فإنه في تلك السنين ، كان قد شرع في إتخاذ النظام النباتي في طعامه . وشهوات الأنسان « تتكيف » بطعامه إلى حد بعيد . وقد أومأ فرانك

هاريس في ترجمته لبرنارد شو إلى أنه كان ناقصاً من الناحية الجنسية . وكاد يقول إن ألتزامه للطعام النباتي هو علة ذلك . وقد أنكر برنارد شو في صراحته المألوفة هذه الشبهة . والواقع أنه ليس هناك ما يدل عليها بتاتاً ، وإن كان هناك بالطبع ظن بأن أنغماس هذا الأديب الكبير في المشكلات الأدبية ، ووقوفه منها على المستوى العالي في التبعات الأجتماعية والفلسفية ، قد خفف عنده من هذه الحدة الجنسية التي تكون عند نظرائه من الناس . أما تجنبه اللحم والخمر ، فيأتي بعد ذلك في تخفيف حدته الجنسية

وقد عرف برنارد شو ثلاثاً من النساء ، أرتفع بينه وبينهن الحب إلى درجة سامية . إذ كان ينطوي على كثير من الألم والتضحية ، وما تصطلح على تسميته أحياناً بالروحية . وقد كان «لاروشفو كول » يقول أن هناك كثيراً من الناس ، ما كانوا ليعرفوا الحب لولا أنهم قرأوا أو سمعوا عن قصصه . ومعنى هذا أن الحب « يتكيف » بثقافتنا ، وأن لكل منا طريقة في معالجته أو معاناته ، هي ثمرة للثقافة التي حصلنا عليها من بيئتنا الأجتماعية ، ومن آدأبنا الموروثة . ولذلك يجب أن نجزم بأن هناك فرقاً عظيماً ، بين الشاب الذي لم يقرأ من قصص الحب سوى ما جاء في كتاب « ألف ليلة وليلة» وبين شاب آخر قد قرأ « أبيلار وهيلوئيز » . فإن ما يستنبطه أحدهما من معاني الحب ولذاته ، تختلف إختلافاً جوهرياً عما يستنبطه الآخر . ولكل منهما أسلوبه في

الحب تبعاً لهذا الاختلاق

وأحس برنارد شو لوعة الحب الأولى حين عرف آنسة تدعى ماي موريس . وكان أبوها أشتراكياً من طراز تولستوي ، ينزع إلى الأشتراكية لأنه يجد فيها المجال للفنون الجميلة والرحمة بالفقراء . وكانت ماي تختلط بالأشتراكيين الفابيين ، الذين كان برنارد شو يعد زعيمهم . وكان يزور منزل والدها ويستمتع بالحديث إليها . وكانت مديدة هيفاء ، تحسن لقاء برنارد شو ولكنها كانت تجهل ما يكنه نحوها من حب غامر ، يلجم لسانه ، ويربك حركته ، عندما يلتقي بها . وكان في ذلك الوقت فقيراً ، يكاد يكون محروماً من الكسب . وكان موريس ميسور الحال ، فلم يجرؤ برنارد شو على أن يطلب يد أبنته ، ولكنه لم ينكر على نفسه زيارتها . على أننا مع ذلك لانحس أنها قد ألتفتت إليه أكثر مما كانت تقتضيها مجاملة الضيافة . وهو يروي عن نفسه أنه ذات مرة كان يهم بالخروج من منزل أبيها ، فبرزت إليه في أناقة ، وودعته في رقة وحنان ، حتى أحس أنه تمت بينهما الخطبة « في السماء». وفي هذا التعبير مايدل على أنه هام بها هياماً عظيماً . ولكن هيامه كان مكتوماً في نفسه !

وذات يوم ، عرف أنها خطبت إلى أديب إشتراكي يدعى سبارلنج ، ثم تزوجته . وأستكان إلى حظه ، وتقبل هذا الحرمان من حبيبته التي كان يعدها خطيبته « في السماء». ولكن حدث بعد ذلك أن هذين

العروسين اللذين سكنا في دار نائية ، دعوا برنارد شو إلى زيارتهما . فزارهما على براءة وأمانة ، وبقي معهما أسابيع ، والجميع هانئون ، من دون أدنى دليل على خيانة أو مخالفة زوجية . ولكن الناقد لايشك في أن ماي موريس قد وجدت في برنارد شو من روعة العبقرية والعظمة ، ما جعلها تفكر ، وتقارن بينه وبين هذا الزوج الأليف . لأنه ما كاد برنارد شو يتركهما ، حتى وجد الزوج أن زوجته قد أستحالت إلى حجر مثلج لايتحرك ، كأن كل عواطفها قد جمدت . وغشي البيت جو من المرارة ، يكاد كل من الزوجين يطعم علقمه ، حتى لم يجدا مندوحة عن الفراق !

ولم يتهم الزوج برنارد شو بإغراء زوجته . ولكنه قال إن زيارته كانت سبب هذا الفراق . وبقيت ماي بعد ذلك في عزبتها حتى ماتت

أما المرأة الثانية التي أحبها برنارد شو فهي ألين تري ، الممثلة الأنجليزية . وكانت رائعة في جمالها وفنها . وهي عند الأنجليز بمقام ساره برنار عند الفرنسيين . وأحب كل منهما الآخر على بعد ، لايلتقيان. وإنما كانا يتراسلان . وقد طبعت بعد ذلك هذه الرسائل ، فكانت كشفاً رائعاً عن أسلوب في الحب لايطاق بين المحبين

وقولنا أنهما « لا يلتقيان » ليس يعني أنهما لايتقابلان بالعين . فقد كانت « ألين تري » تظهر على المسرح كل مساء ، وكان برنارد شو يواظب على الحضور ، ويتخذ مقعده قريباً من خشبته . فكانت العين

تلتقي بالعين لقاء صامتاً ، حتى إذا بلغ برنارد شو منزله ، كتب إليها رسالته ، وبثها فيها لوعته وشجنه . فإذا كان الصباح ردت هي عليه في رسالة أخرى

ومثل هذا الحب الذي لايعرف لقاء ، جدير بأن يحتدم ويدوم إحتدامه. وقد بقي الأثنان على هذا البعد ، يستمتعان ويعانيان لذة الفراق الأليمة. وكانت ألين تري تمثل درامات هذا الصديق أو الحبيب النائي ، ومع ذلك لم يكن برنارد شو يختلس الزيارة من خلف الستار ، كي يشكر أو ينبه أو ينتقد ، كما هو المألوف بين المؤلفين . بل كان يقنع برسالته التي يسكب فيها نفسه ، ويبعثها إليها . وبقيت على ذلك حتى ماتت . ولما نشر الكتاب الذي يحوي هذه الرسائل ، كتب أبن ألين تري نقداً لها فقال: إن برنارد شو لم يكن يحب أمه وإنما كان يخدعها بهذه الكلمات العذبة كي تمثل دراماته . وأن أمه خُدعت ، فأحبته ، وخدمته بتمثيل هذه الدرامات . ولكن المتأمل لهذه الرسائل يحس فيها طابع الصدق والأخلاص ، ويكاد يكون من المستحيل للأديب الكبير أن يخدع ويكتب، كاذباً على إحساسه وعاطفته . ولكن يمكن أن يقال أن برنارد شو لم يكن يعجب بما نسميه الجمال في جسم ألين تري ، وإنما كان إعجابه ينصب على شخصيتها الرائعة ، التي كانت تتلألأ على المسرح . ولعل هذا هو السبب في أنه أستطاع أن يحب على بعد ، وأن يحجم عن اللقاء . لأن جمال الجسم يثير الشهوة ، ويغري بالقرب . ولكن جمال

الشخصية يبعث الأعجاب ، والعبادة على بعد . ولعل هناك تفسيراً آخر، هو هذه الرغبة العامة التي يحسها الأديب الصادق في التجربة . كيف يكون الحب على بعد ، وكيف تستحيل اللوعة إلى فن ، وكيف تستغني عن العناق المطفيء للشهوة ، بالخيال الذي يشيع في النفس ، وعلوّها بمباهج الألوان والأشكال ؟

وكانت ألين تري رائعة الجسم ، يدل على ذلك أن خمسة تزوجوها وأحداً بعد آخر . ولكن برنارد شو على ما يبدو ، كان يفتتن بها وهي تمثل ، أي أنه كان يعشق ميزاتها الفنية ، وليس ميزاتها النسوية . وهو يقول : « إن الحب الأمثل هو الذي يجري عن طريق البريد . وقد كان تراسلنا حباً كاملاً شافياً . وكنت أستطيع أن أقابلها في أي وقت أردت، ولكني لم أشأ أن أعكر هذا الحب الصافي »

وستبقى هذه الرسائل المتبادلة بين برنارد شو وألين تري ، أدباً خالداً، وتجربة للبشرية سامية ، بين نفسين أرتفعتا إلى مستوى عالٍ من الأحساس والخيال ، والتعقل وكظم « نهيق الحمار »

أما المرأة الثالثة التي أحبها برنارد شو ، فيبدو أن حبها له أو حبه لها ، كان من النوع الذي لايلتهب ، فينير أو يدمر . ولا يسمو ، فيقوم الخيال فيه مقام اللقاء ، ويغني عنه.وهو النوع الذي يعيش في مجتمعنا ، وتبني به العائلات

وهذه المرأة هي شارلوت بين تونسهد . وكانت فتاة ثرية ، تعرفت إلى

«بياتريس ويب » وتعلمت منها الأشتراكية . وكانت قد سئمت أولئك الشبان العديدين الذين طلبوا يدها طمعاً في ثرائها . ووجدت برنارد شو نجماً يوشك أن يبزغ ويتلألأ ، فسعت بياتريس ويب بينهما كي تربطهما بالزواج . وكانت تنشد في هذا الزواج تحقيق مآرب مختلفة . منها التخفيف عن برنارد شو من الفاقة التي ألحت عليه إلى أن كاد يبلغ الأربعين . ومنها أستخدام هذا الثراء الذي كانت تتمتع به هذه الآنسة لترويج المذهب الأشتراكي ، ولكن برنارد شو كان ، كما هو شأن الأديب المخلص لرسالته، يتوجس خيفة من الزواج . إذ لا يستطيع الأديب أن يخدم سيدين معاً : الفن والزوجة

ولكن شاءت الظروف غير ماشاء برنارد شو ، فقد مرض ، ولزم السرير ، وساءت حاله . وكانت شارلوت في نزهة مع بياتريس ويب في البحيرات الأيطالية ، فأرسل إليهما صديق ينبئهما بخطورة المرض ، وبأن برنارد شو لايجد من يعنى به . فلم يكن من شارلوت إلا أن سافرت على أول قطار ، وقصدت إليه عقب وصولها إلى لندن . فألفته في حال يرثى لها من الأهمال

وهنا يقول برنارد شو في صراحته البشعة ، أن النفس وقت المرض تضعف فترق ، ويغمرها الحنان . ولذلك يسهل غزوها بعروض الحب والزواج . وقد قبل الزواج . وما هو إلا أن سرت في عروقه بوادر العافية، حتى قصد مع شارلوت إلى الكنيسة حيث تم زواجهما . وهو

لايزال يذكر أن رفيقه إلى الكنيسة كان جراهام وولاس ، المفكر المشهور والمعروف بكتابه « فن التفكير ». وكان يمتاز بقوام وصحة وإشراق ، ويتزين بوردة على صدره . فلما رآه القسيس ، حسبه العريس ، ونحّى برنارد شو عن كرسي الزفاف ، مستهيناً به لهزاله وضعفه

ثم أعتذر القسيس ، وأتم الزواج

قصة كارل ماركس

ولد سنة ١٨١٨ ، وكان أبوه يهودياً قد أحترف المحاماة . وكان قد تنصر سياسة لا ديناً ، وذلك لكي يقبل على مكتبه الناس . وكان أهله يعيشون في بلدة تريف في الموزيل في فرنسا ، قريباً من التخوم الألمانية . وهذه البلدة كثيراً ما تناوبتها سيادة فرنسا وألمانيا على التوالي

وكانت أمه مؤمنة دينة ، تميل إلى الهدوء ، والجري على أوضاع العرف . فعاشت طول حياتها وهي في أشد الحزن والأسى لنزوع أبنها إلى أفكاره الثورية ، ومطاردة الحكومات له . ونشأ ماركس عبلاً مديد القامة . وكان أسمر اللون ، يكاد يكون آدماً ، حتى كان إخوانه يسمونه الزنجي . ولكن ملامحه كانت أبعد ماتكون عن الملامح إليهودية المألوفة

وكانت مدينة تريف بعد سقوط نابليون ، قد أنتقلت إدارتها من فرنسا إلى ألمانيا . وكان يسكن بجوار منزل ماركس المستشار الألماني البارون وستفالين . وكان والد ماركس قد عرف هذا البارون ، وصارا صديقين يتزاوران . وتعرفت عائلة كل منهما إلى عائلة الآخر . وكان للبارون إبنة جميلة تدعى برتا ، وكانت سنها أكبر من كارل ماركس

بأربع سنوات . ولكنه شب معها ، وقضيا عصر الصبا معاً . فلما بلغا سن الشباب ، تعلق ماركس بها ، وصار يلهج بذكرها ، ولا يطيق فراقها . وكانت هي أعقل منه بحكم سنها ، وكانت تجد في نفسها له ، مثل ما يجد هو أو أكثر . ولكنها كانت تداري وتطاول

وأرسله أبوه إلى جامعة بون ، ولكنه لم يكن خلياً . فأشتغل باله بحبيبته ، وأنتشرت عليه لذلك دروسه ، فلم يأت بنتيجة . وصارت أخباره تصل إلى والده ، فيبعث إليه يبكته ويؤنبه بلا طائل . وأخيراً أستدعاه والده ، ومنعه من الذهاب إلى بون

فلما حضر ، أخذ في حض حبيبته على الزواج منه ، وألح عليها في ذلك ، وأظهر لها من الحب والأخلاص ما جعلها تقبل يده ، وتعده بالزواج بعد تردد طويل وممانعة جدية . فقد كانت برتا لزيادة سنها على سنه ، تخشى أن يكون تعلقه بها عن هوى زائل لا عن حب مقيم

وبقيت خطبتهما سراً مكتوماً ، لايدري بها أبواهما . وعاد ماركس إلى جامعة برلين ، وأخذ يدرس بنشاط . ولكنه كان كثير الدأب في تحصيل ما لم يكن قد أختص له من الدروس ، فكان يكثر من مطالعة التاريخ والفلسفة والأقتصاد مهملاً في ذلك دروسه القانونية الأصلية . وهذه القطعة التالية المأخوذة من أحد خطابات والده إليه ، تبين حالته في ذلك الوقت :

« أنك في تشوش هائل ، تكثر من التجوال في مختلف العلوم .

وتقضي وقتك عبثاً في التأمل حول المصباح »

ولكنه مع هذا التشوش ، أستطاع أن ينال شهادة الجامعة . وكان أبو قد مات في هذه الفترة ، فعزم على أن يحترف التعليم ، ولكنه عدل عنه إلى الصحافة ، وتعين محرراً في إحدى الجرائد الحرة . ثم غلا في سياسته حتى أضطر أصحاب الجريدة إلى فصله

وكان أهل برتا قد عرفوا علاقتها بماركس ، وصاروا يمانعون في عقد هذا الزواج . ولكن حب الحبيبين كان أوثق من أن تفكه شكوك العائلة ، وتزوجا على الرغم من إستياء أهل الفتاة في سنة ١٨٤٣

وخرج بها ماركس مهاجراً إلى باريس ، حيث تعرف إلى برودون وباكونين وسان سيمون . وكان هؤلاء الثلاثة من أقطاب الأقتصاد في ذلك الوقت ، ومن غلاة الحاملين على مبدأ الملكية . فأُشرب ماركس آراءهم ، وأخذت هذه الآراء تتطور في نفسه وتتكشف ، حتى تفتحت أزهارها عن الأشتراكية الحديثة

وعرف ماركس في ذلك الوقت أيضاً هَيْنه ، الأديب الألماني الذي لايفوقه في الأدب الألماني سوى جيته . وكان هينه يفتن كل من يقترب منه أو يقرأ له بل كان بيته يُحَاصر أحياناً بمن أحبه من النساء والرجال

وتعلقت زوجة ماركس بهينه بعض التعلق ، وكان هينه يحبها . ولكن أكثر الرواة يجمعون على أن هينه أحترم في ماركس صداقته ، ولم يخنه في زوجته وأن الزوجة عاشت أمينة للزوجية ، لم تخل بشروطها ، ولم

يكن حبها لهينه إلا حباً أفلاطونياً بريئاً

وأوعز ملك بروسيا إلى حكومة فرنسا أن تنفي ماركس من بلادها ، فنفته . وبقي من ذلك الوقت إلى حين وفاته ، وهو في فقر مدقع ، دائم الرحلة من بلد إلى بلد . لاينزل مكاناً حتى يرى الشرطة قد أحاطته ، وأخذت في إعناته بضروب من المكايدات . وأنتهي به المطاف إلى لندن، حيث طبع كتابه « رأس المال» بعد أن عانى المشاق في وجود من رضي بطبعه

ولم يكن يعوله سوى جريدة التربيون بنيويورك ، إذ كانت ترسل إليه جنيهاً كل أسبوع ، لكي يوافيها ببعض المقالات

وأنتهت هذه الحياة المعذبة بشيخوخة غير مطمئنة . فقد فقد ماركس إيمانه بالله ، وكفر بقوانين الزواج ، وصارت الحكومات في نظره شراً عظيماً ، يجب أن يزال من الوجود . وماتت زوجته قبل وفاته بعام ، ويحكى أنه عندما ذهب هو وأولاده الستة لكي يدفنوها ، عثر فوقع في حفرة قبرها . ومنذ ذلك الوقت يوم وفاته ، انطفأت حماسته ، ولم يعد يهتم لشيء في هذا العالم



فهرست

الصفحة

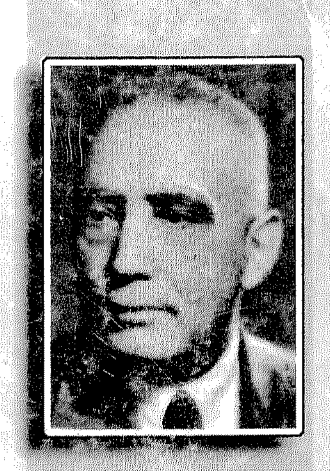


دار ومطابع المستقبل

بالفجالة والأسكندرية

ومكتبة المعارف بيروت





الحب هو السعادة، أو هو أقرب شئ إلي السعادة.

فيه تتبلور أخلاقنا ، وتبدو في جوهرها الأصيل..

الحب يربينا ، ويستنبط منا أسمي ما في أخلاقنا.

ولذلك حين نروي قصة الحب ، إنما نروي أيضاً أحسن ما في الطبيعة البشرية من خلال ، تحملنا جميعاً علي الإعجاب ، وعلي الإحساس بالسعادة.

قرش جنيه
٨٠٠ و

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت